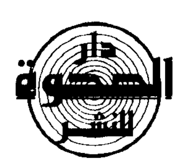
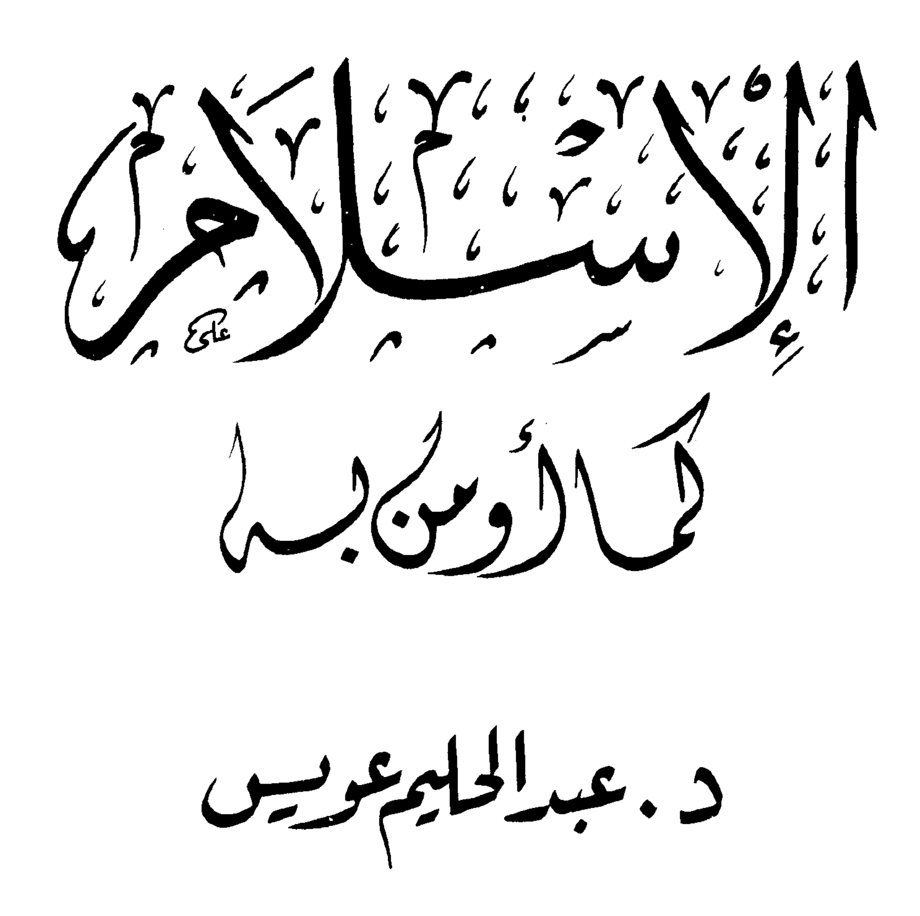
الإسلام

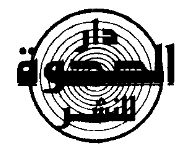
كما أؤمن به

جميع حقوق الطبع محفوظة



دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة
الإدارة : ٧ ش السراى - المنيل - القاهرة
تليفون وفاكس : ٩٨٧٩٢٤
المخازن : حدائق حلوان - خلف عمارات المهندسين
القاهرة . ت : ٣٧٤٠٠٧١


الإسلام
كما أؤمن به
د. عبد الحليم عويس


دار الصحوة للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئـة

ميزان الإسلام

– لاتنحصر علاقتى بالإسلام فى أننى مقتنع به .

– ولا أتعامل مع الإسلام تعاملاً ينتهى عند حدود أنه دين التوحيد الصحيح الذى ختم الله به الرسالات ، وحفظ أصوله من التحريف والزيف البشرى ! !

وكنتُ منذ عقلتُ أمر هذا الدين ، وشببتُ عن طوق الجمود الفكرى الذى يتشبث به الكثيرون ... كنتُ أحسّ بأن مايربطنى بهذا الدين إنما هو الرباط نفسه الذى يربطنى بروحى ...

فهذا الدين العظيم الذى هدانى الله إليه ، ووجَّه عقلى نحوه ، وملأ به كيانى ، لم يعد بالنسبة إلىّ نظرية أقنع بها ، ولاقضية أشعر نحوها بعطف ...

بل كنت – ولازلت – أحسّ بأننى لستُ فى حاجة إلى أى دليل مقنع ، ولا أية عاطفة خاصة ، لكى أومن بضرورة هذا الدين ، وسمو هذا الدين ، وتفردية هذا الدين ، اللهم إلا بالقدر الذى أحتاج إليه من البراهين لكى أومن بأن (الماء) ضرورى لحياتى ! !

فإنى لاأتخيل الحياة بغير الإسلام ، تماماً كما أنى لا أتخيل الحياة بغير الماء ! ! ..

إن قضية الإسلام – اليوم – ليست فى تلك المشكلات التى تتوالى على

المسلمين من كل مجرمى الأرض ... فهذه المشكلات إنما هى نتيجةٌ وليست سبباً ..

لكن قضية الإسلام – اليوم – تنحصر فى انحسار مفهوم المسلمين للإسلام نفسه ... وفى قصور المسلمين فى تعاملهم مع الإسلام .

فما عاد المسلمون – إلا أقل القليل – يستطيعون الصعود إلى قمة التصور الإسلامى الصحيح ...

إن الإسلام الكونى .. قد أصبح – فى نظر بعضهم – إسلاماً « نوعياً » أو جزئياً أو مذهبياً أو نظرياً أو مظهرياً أو وسيلة من جملة وسائل العيش ...

وقد أصبح تناول معظم المسلمين للإسلام تناولاً عفوياً أو سطحياً ، يعيش فى دائرة هامشية ، تفتقد المعاناة الفكرية والمعاشية ، والتفاعل الواعى مع حقائق الإسلام – كفكر ونظام – ومع حضارته – كواقع – ظهر فى التاريخ البشرى ، وارتبط بالزمان والمكان .

وكما أصبح القرآن لايجاوز الحناجر – لدى كثيرين – فقد أصبح الإسلام لايجاوز التزاماً ببعض الشعائر – فى نظر بعضهم – ورسالة جاءت بالعقيدة الصحيحة – فى نظر بعضهم – وديناً لايزيد فى حجمه عن حجم الأديان الأخرى ، ولاعلاقة له بنظام الحياة ، ومنهج السلوك الاجتماعى ، فى رأى آخرين ! !

وقد رأيت بعض الناس ، فرأيتهم لايهمهم من أمر الإسلام إلا بعض القضايا المبتسرة ، وقد أهملوا – أو لم يهتموا – ببقية الأساسيات الإسلامية ... ويكاد الواحد منهم يلبس (نظارة سوداء) لايرى من خلالها المسلم إلا فى هذه الصورة التى رسمها ... وليس يعنيه من أمر بقية الصورة شىء ... بل رأيتهم – هداهم الله – لايقوِّمونك إلا بهذا المنظار ، وإذا جئت تحدثهم فى أمور أخرى – التمسوا فى حديثك كلمةً تنتمى إلى ركن من أركان الصورة ، بالغ فيه آخرون فسرعان

ما أظهروا لك أن كلامك يخدم الجماعة الأخرى ...

ولكى اقترب فى حديثى من الوضوح أقول :

لقد نهيت أحد الناس فى مسجد الحسين بالقاهرة من التعلق بأستار قبر الحسين (رضى الله عنه) لأن الحسين لايملك نفعاً ولا ضراً ... لا لنفسه ولا لغيره .

وقد دخل معى هذا الإنسان – المحسوب على الإسلام – فى جدال بغيض ، وددت أنى لم أسمعه فى حياتى ... لأنه من الشرك بعينه(! !) ولما عرف (عرضاً) أنى أعمل فى المملكة العربية السعودية ، كان هذا كفيلاً بأن يعلو صوته ، ويقول لى : الآن عرفت من أين أتتك هذه الأفكار .. إنّك وهّابى ! !

– وآخرّون من الإخوة الأفاضل تحدثت معهم ، وكتبت فى بعض ما كتبت عن ضرورة الاهتمام بالجانب الوجدانى والسلوكى والتربوى فى حياة المسلم ، بل وطالبت باستحداث علم فى الجامعات الإسلامية ، يسمى (علم السلوك الإسلامي) أو (علم التقوى) أو (علم الأسوة الحسنة) أو أى اسم آخر ... المهم أن يكون هذا العلم إكمالاً للجانب العملى والسلوكى الإسلامى ... لأنى رأيتُ – من واقع تجربتى – أن الإسلام تحول – حتى فى الجامعات الإسلامية ومعاهد الدعوة – إلى (نظرية) أو (قانون) أو (مذهب) له تفسيره وفقهه وأصوله ... أما (روحه) فليست موجودة فى منهاج الجامعات والمعاهد الإسلامية ...

وكما وعينا من تاريخنا :

لقد كان المسلمون – بشهادة التاريخ – فرساناً بالنهار ورهباناً بالليل ، وكان الرسول ﷺ – وهو الذى غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر – يقوم الليل حتى تتورم منه الأقدام ، وكان أبو بكر يبكى – وهو يقرأ القرآن – حتى فتن به المشركون ، وكان الصحابة من الخشوع فى صلاتهم ، بحيث قطعت يد أحدهم وهو يصلى دون أن يحسّ بألم ... ! !

فمن فى معاهد الإسلام وجامعاته – يدرِّس هذا العلم العظيم ... علم (التقوى) ... علم الخشية ... علم الوجدان الإسلامى ... علم الروح الإسلامية التى تجعل من الإسلام ديناً موصلاً بالله ، وليس مجرد نظرية عقدية أو أخلاقية أو اقتصادية أو اجتماعية ؟ ! !

وبالطبع لم يلق اقتراحى استجابة ، وذهبت كلماتى أدراج الرياح .. لماذا ؟

– لأنه يخشى فى رأى بعضهم أن يقرب هذا العلم بالمسلم من الصوفية ! ! ؟ مع أن الناس لايلجأون إلى الصوفية إلا فى ظل ظمأ روحى وجفاف وجدانى يحسون به ... فالصوفية نتيجة وليست سبباً .

~

وهكذا يظل تقديم الإسلام للناس (جافاً) بلا روح ، ويتخرج أجيال من الحفاظ والعلماء ... لكن لايمكن أن يظهر من بين هؤلاء (أحمد بن حنبل) أو (سعيد بن المسيب) أو (محمد بن إدريس الشافعى) أو (عبد الله بن المبارك) أو (العزّ بن عبد السلام) أو (أحمد بن عبد الحليم بن تيمية) .. أو (ابن قيم الجوزية) أو (محمد بن عبد الوهاب) أو (مصطفى صادق الرافعى) .. أو (حسن البنا) أو (سيد قطب) أو (المودودى) أو (أبو الحسن الندوى) ... أو غير هؤلاء ممن عاشوا الإسلام ، ونبتت جذوره فى قلوبهم ، بينما كانت أغصانه ترتفع سامقة فى عقولهم ...

وحسب هؤلاء المثقفين الجدد المحصورين فى المناهج الأكاديمية أن يجمعوا شهادات عليا وأن يتبوأوا – فى الدنيا – مناصب رفيعة ! !

~

إن الإسلام رسالة أرسلها الله للإنسان لكى تخاطب كل كيانه ، وتتفاعل مع كل طاقاته ... وليس من منهج الإسلام أن (يضغط) فقه المسلم للإسلام فى

دائرة (العقل) ... أو أن يحاصره فى دائرة (الوجدان) أو أن يهتم منه بتعليمات (الجسم) وتهمل بقية التعليمات ...

كما أن الإسلام ليس موجهاً (للرجل) وحده ، بل هو موجه - فى سياق واحد - للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ...

فهو للرجل والمرأة معاً .. وهو للفرد والمجتمع معاً ... وهو - بالتالى - للروح والوجدان والعقل والجسم معاً ... فى سباق واحد ، ودون أى انفصام أو تجزئة ! !

ومن هنا - وحرصاً على تكاملية الإسلام - يجب أن يقدّم الإسلام للناس بصورة شاملة تتجاوز الأخطاء المرحلية ، والضغوط المذهبية ، والاتجاهات الذاتية ، بعيداً عن التركيز العقلى الذى يجعل الإسلام مجرد (نظرية فلسفية) . [وبعيداً عن التركيز الفقهى الذى يجعل الإسلام مجرد (قانون) من القوانين] ، وبعيداً عن التركيز الوجدانى الذى يجعل الإسلام طريقة (صوفية) - أو (تجربة روحية شخصية) سرعان ما تحفل بالبدع والخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان ... إلى غير ذلك من التركيزات ، والإسقاطات ، التى تفرض على (الحقيقة الإسلامية) ظلالاً خارجية ... لاتمت إلى (صبغة الله) المتوازنة ، بنسب ولاصلة ! !

وهذا الكتاب بداية ..

بل هو مجرد محاولة لإيقاف هذا السيل من الأهواء الضاغطة التى توشك - عن حسن نية غالباً - أن تخرج الإسلام عن حقيقته النقيّة البيضاء ، وأن تفرض

على الناس منظارها الذى تنظر به إلى الإسلام من زاوية خاصة ، وبالتالى تنتهى إلى (ميزان) خاص تزن به إسلام الناس ، كأنها - كما قيل - تريد أن تزن الجبل بميزان الذهب ...

وصدق القرآن الكريم فى ميزانه القسط :

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ .

﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ .

﴿ قل أتعلّمون الله بدينكم ، والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، والله بكل شىء عليم ﴾ .

﴿ يمنّون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنّوا علىَّ إسلامكم ، بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ .

﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون ﴾[1] .

إن هذا هو (ميزان) الإسلام ... الثابت .. الشامل ... المهيمن ... الذى لاميزان سواه ...

﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾[2] .

د . عبد الحليم عويس

الرياض : غرة ربيع الثانى سنة ١٤٠٢هـ

---

(١) سورة الحجرات ١٣ - ١٨ .

(٢) سورة النساء ٨٧ .

الفصل الأول

الإسـلام
كما ينبغى أن نؤمن به ! !

كم هى كثيرة تلك الكتب التى حاولت أن تعطى إطاراً شاملاً للإسلام .. لكن من بين هذا السيل لم يستطع أن يصعد إلى قمة الحقيقة الإسلامية إلا دراسات قليلة .

ويالها من متعة روحية وفكرية تلك التى تنقلك إلى أفق الإسلام السامق ، وأنت تعيش مع تلك الدراسات التى استطاعت أن تدنو من قمة الإسلام السامقة ، تلك القمة التى لاتستشرف بالعقل وحده ، فليست هى بالنظرية الفلسفية أو القانونية ولا بالوجدان وحده ، فليست هى بالحدث الصوفى أو التجريدية البوذية ...

وإنما الحقيقة الإسلامية (نسيج متكامل) يواجه الحقيقة الإنسانية بكل تعقيدها وتكاملها ، فيشبع فيها سائر جوانبها النفسية والروحية والفكرية على نحو متكامل .

أجل : أى متعة يعيشها المسلم المعاصر وهو يقرأ بعض الأمهات التى استطاعت أن تترجم الحقيقة الإسلامية وحدها – من جانب – وأن تتعامل مع الإسلام بوسائله الشاملة الكاملة من جانب آخر ... فهى لاتسقط عليه من خلفياتها الثقافية ، وهى لاتركز على زاوية دون زاوية ، وهى لاتتعامل معه تعاملاً نفعياً أو انتقائياً ، وإنما تريد أن تتلقاه كما تلقاه الصدر الأول من السلف ، وكما قال والد العلامة (محمد إقبال) له فى نصيحته الذهبية : « يابنى اقرأ القرآن

كأنما أنزل عليك » ! ! .

إنَّ الإسلام الكامل النقىّ الصادر عن مصادره الأساسية ، الذى توضع حقائقه فى وعاء عقلى ووجدانى نظيف .. هذا الإسلام هو (مشكلة المشكلات) التى تواجه المسلمين على مشارف القرن الخامس عشر للهجرة ! ! .

إننا بحاجة إلى إنسان يخلع عنه ضغوط الفلسفات العالمية ، واستبداد التصورات الجزئية للإسلام .. ويقرر أنه يريد أن يتلقى الإسلام كما تلقَّاه جيل الصحابة .. ثم إنه – أى هذا الإنسان – لن يكون بعد ذلك مجرد وعاء جامد ساكن ، يوضع بما يحتويه – فى المتاحف التاريخية – وإنما سيواجه بهذا الإسلام عالم اليوم ، بفلسفاته ، وتعقيداته ، ومختلف تحدياته الفكرية والسلوكية والتكنولوجية .. إنه لن يشكل فهمه للإسلام على أساس مايسمَّى بالمحيط السائد أو روح العصر ، بل إنه – بإسلامه النقىّ – سيشكل المحيط الثقافىّ والفكرى السائد وسيصوغ روح العصر بصيغة الإسلام ... لكن ... كيف للمسلم أن يعدل هذا المسار المسمى بالمحيط السائد ، أو بروح العصر ، وهو مثقل بأوزار هذا المحيط ، منهزم تحت ضغط روحه ومناخه ؟

إن ذلك غير ممكن ... وإن التجرد من هذا المحيط والاستعلاء على هذه الروح إنما هما شرط لإصلاحهما ولتقويمهما التقويم الموضوعى الإسلامى الصحيح . ومن هنا وعند هذه النقطة نجد أنفسنا نختلف مع الأستاذ (الشاذلى القليبى) حين يقول فى كتابه (من قضايا الدين والعصر)[1] مانصه :

أعتقد أنه من غير المعقول أن نعزل عملية فهم الإسلام عن المحيط الثقافى والفكرى السائد فى مجتمعاتنا المعاصرة . ولايمكن الاقتصار فى معالجة مشاكل

---

(١) ص ٢٦ طبع تونس .

العصر على أدوات أعدت منذ قرون طويلة ، وفى أوضاع فكرية واجتماعية مغايرة للأوضاع التى نعيشها اليوم ، فكما أن للعلوم والفلسفة أدواتها الفكرية التى تطورت بحسب تطور الفكر ، وخلجات الضمير ، وتبدّل الأحوال الاجتماعية فكذلك لامندوحة أن تتغير أساليب التحليل والاستنباط فى كل مايتصل بفقه الدين ، وتنظيم المعاملات ، وتعميق الأخلاق » ! !

فهذه المقولة العامة التى حملها النص السابق تحتاج إلى تمحيص وتحليل ... لأننا إذا أخذناها – بجملتها – فإنها تضعنا أمام إسلام لاثوابت فيه ، ولاجذور عميقة خالدة يتكىء عليها بناؤه الفكرى .

إنه إسلام يتطور من قرن إلى قرن ، ومن عقل إلى عقل ، ويخضع فى فهمه وتفسيره لشتى التيارات الثقافية والفكرية التى تمرّ به أثناء رحلته فى التاريخ ... وليست له هويته الصامدة ! ! .

ومثل هذا الإسلام ، بمثل هذا الإسقاط الفكرى الدائم عليه ، يمكن أن يتباين أثناء رحلته فى التاريخ تبايناً شديداً حتى يتقطع الحبل يوماً ما – لاقدّر الله – بين إسلام محمد ﷺ وصحابته ، وإسلام أبناء القرن الخامس عشر للهجرة ! ! .

وما إلى هذا – فى رأينا – قصد كاتب النصّ ! ! ولكن العمومية – فى التعبير – توحى بهذا الذى ذكرناه . بل هى تكاد تؤكد لنا أن الكاتب يريد منا :

– أن لانقتصر فى فهمنا للإسلام على أدوات أعدت منذ قرون طويلة ، وهو كلام يزيح الثوابت الإسلامية من مكانها ، ويجعل شأن الإسلام ، كما أشار الكاتب صراحة ، شأن العلوم والفلسفة فى خضوع نظرياتهما للتطور المستمر .

– والكاتب يريد منّا – أيضاً – أن تتغير أساليبنا فى التحليل والاستنباط فى كل ما يتصل بفقه الدين ، وتنظيم المعاملات وتعميق الأخلاق .

– ونحن – كما ذكرنا سلفاً – لانؤيد هذا المنهج (فى فقه الإسلام) وترى أنه ، لكى نفهم الإسلام ، يجب أن نعطى أنفسنا فرصة الفهم الموضوعىّ للإسلام

بعيداً عن أية ضغوط خارجية ، كما أننا يجب أن لا نصر على فرض مقولات أو مشكلات مرحلية ملحة على الإسلام ، فلربما كان للإسلام منظوره الكلى الذى يمتصّ المشكلة المرحلية ويضعها فى إطارها الاجتماعىّ الكلى ! !

كيف نفهم الإسلام ؟

إننى لا أملك حصراً شاملاً لهؤلاء الذين ألّفوا كتباً تحت العنوان السابق .. لكنى أعرف كتابين فقط صدرا تحت هذا العنوان نفسه :

– أحدهما لمسلم عربى وهو الشيخ محمد الغزالى ، وقد صدر فى الخمسينات من القرن الميلادى (السبعينات من القرن الهجرى) والثانى لمفكر أوروبى هو البروفيسور « فريتجوف شيون » وترجمه إلى العربية سنة ١٩٧٨م الدكتور عفيف دمشقية .

– وقد توجه أولهما وهو الشيخ « محمد الغزالى » بكتابه إلى المسلمين .. أما ثانيهما وهو المستشرق « شيون » فقد توجه بكتابه إلى الغربيين الذين لايعرفون إلا القليل المشوّه عن الإسلام . وقد أثبت لنا « شيون » أنه نفسه لايعرف الإسلام الحقيقى الذى تنزل على محمد والذى وعاه المسلمون فكراً وحضارة .

إن هذا ليدلنا عليه ما كتبه (شيون) فى الصفحة الرابعة والثلاثين من كتابه (كيف نفهم الإسلام) حين قال :

« ولكى نفهم الحضارات التقليدية بعامة ، والإسلام بخاصة ، علينا أن ندخل فى حسابنا أن القاعدة الإنسانية أو النفسانية فى عرف تلك الحضارات ليست الإنسان العادى الغارق فى الوهم ، وإنما الولىّ المتجرد عن الدنيا المتعلق بالله . فهو وحده الطبيعى تماماً ، وبذلك له وحده كل الحق فى الوجود ، مما يؤدى إلى نوع من نقص التحسس بما هو إنسانى صرف وبسيط . وإذا كانت تلك الطبيعة البشرية قليلة الحسّ بالخير الأعظم ، وجب عليها فى حالة فقدانها الحب أن تشعر على الأقل بالخشية » .

وهكذا يمسح (شيون) « الدنيا » من خريطة الزمان الإسلامى ومن الرؤية الإسلامية التى تنصّ صراحةً فى القرآن الكريم : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ وإن (فريتجوف شيون) ليثبت لنا وهو يحاول أن يعلم الأوروبيين (كيف نفهم الإسلام) أنه نفسه فى حاجة ماسة وشديدة إلى من يعلمه : كيف يفهم الإسلام ؟ ! !

أجل كيف تفهم هذه البشرية مسلمها وكافرها – بل مسلمها قبل كافرها – هذا الإسلام الذى تنزل على محمد النبى العربى الأمى منذ أربعة عشر قرناً ؟ وذلك بعيداً عن أية إسقاطات إضافية ، أو تجزئة تخل ببنائه المتكامل ؟ علماً بأن هذا الإسلام ليس نظرية معقدة ، أو فلسفة مركبة ، إلى هذا الحد الذى قد يوحى به كلامنا .

– وكيف يتسق القول بصعوبة الإسلام مع مانقله لنا التاريخ الموثّق من أن العربى كان يسيغ حقائق الإسلام البسيطة فى دقائق معدودات ثم يصبح من أكبر الزائدين عنها ... حتى يلقى الله عليها .. ؟

– كلا : ليس الإسلام ديناً صعباً ولانظريةً معقدةً ، ولا بناءً فلسفياً يقوم على زخم جدلى ، ويعتمد فى أسسه وطوابعه على منحنيات ومتعرجات ومقولات فكرية يصعب استيعابها ! ! .

أجل هذا صحيح ...

– لكن الإسلام – مع ذلك – ليس بناءً هشاً يستطيع أن يتلاعب به كل ضحل العقل والجسم ، ولا أن يفرض عليه أحدهم – بضيق فكره – حصاراً عند مدى معين ، سواء كان هذا المدى اقتصاداً أو اجتماعاً أو فكراً أو نزعة روحية أو عقدية أو أية خلفية فكرية أو اجتماعية .

« إن هذا الدين متين » ! !

– ولكى نفهم مفاتيحه الأساسية لابد أن نوغل فيه برفق ، وأن نتجرد عن كل موروث متسلط أو نزعة فردية متحكمة .

– ولابد من أن نقبل تسلطه على عقولنا ، لا أن نسلط نحن عليه عقولنا – بآمادها المختلفة ، وآفاقها المتباينة – التى قد تصبغه بصبغتها ...

– ولندخل إلى رحابه كما يدخل الزائر الأجنبيّ الذى لم تقتل حسَّه العادة المدمرة ، ولا الإلف القاتل ، ولتكن مهمتنا أن نكشف عن (هندسته) وجماله ، كما هو فى بنائه الماثل أمام أعيننا ....

– ولنحذر أن ندخل عليه ، بتخصصاتنا الضيقة ، أو باهتماماتنا الموغلة فى الذاتية .. فإننا – إذا فعلنا ذلك – سنكون كالمزارع الذى خرج من أعظم قصور العالم ليتحدث عن جمال الحديقة الموجودة فى القصر ، وأنواع المزروعات التى تنبت بها ، دون أن يسترعى انتباهه بقية ما فى القصر من هندسة وفن وجمال ، أو النجّار الذى دخل القصر ليركز اهتمامه فى الألوان والزخارف وتشابك الخطوط ...

كلا ... فلندخل إلى هذا القصر محايدين ، نحمل فى أعماقنا رؤية نافذة تعطى لكل جانب حيّزه ، وتريد أن تحصل على الرؤية الكلية ... وتتعرف على التنسيق المتكامل ، ... دون أن تغفل الجزئيات الصغيرة ... لكنها لا تسمح لهذه الجزئيات بأن تطغى على إطار القصر الكبير ...

إننا عندما نتسلح بهذه الروح سنجد أنفسنا فى الحالة نفسها التى وجد فيها نفسه زائر أجنبى للإسلام ... دخل قبلنا – نحن الذين تعوّدنا الإسلام – بالروح نفسها ، فوجد نفسه يعيش فى أجواء من الحب المثالى ، بحيث ارتفع فوق كل العلاقات القانونية ، وبهرته عناصر الانسجام والاتساق والجمال والقوة فى البناء ... فراح يعبّر عن ذلك بقوله – لنفسه – مندهشاً :

– لماذا اعتنقت الإسلام ؟

– وما الذى جذبك منه خاصة ؟

ثم يجيب نفسه ... قائلاً :

« إننى هنا يجب أن أعترف بأننى لا أعرف جواباً شافياً ، فلم يكن الذى جذبنى تعليمٌ خاصٌ من التعاليم ، بل ذلك البناء المجموع العجيب والمتراص بما لا أستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الأخلاقية ، بالإضافة إلى منهج الحياة العملية » .

« ولا أستطيع اليوم أن أقول أىّ النواحى قد استهوتنى أكثر من غيرها ، فإن الإسلام على مايبدو لى ، بناء تام الصنعة وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضاً ، ويشد بعضها بعضاً ، فليس هناك شىء لا حاجة إليه ، وليس هنالك نقص فى شىء ، فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص . ولعل هذا الشعور من أن جميع ما فى الإسلام من تعاليم وفرائض (قد وضعت مواضعها) هو الذى كان له أقوى الأثر فى نفسى ، وربما كانت مع هذا كله أيضاً مؤثرات أخرى يصعب علىَّ الآن أن أحللها . وبالإيجاز فقد كان ذلك قضية من قضايا الحب ، والحب يتألف من أشياء كثيرة : من رغباتنا وتوحدنا ومن أهدافنا السامية وعثراتنا ومن قوتنا وضعفنا ، وكذلك كان شأنى »[1] .

الرسم الهندسى للإسلام

إن إبداع الخالق فى جمال دينه جعله هادياً للتى هى أقوم ، وجعله صالحاً لكل زمان ومكان ...

– هذا الإبداع – فى رأينا – لايقل عن إبداعه – سبحانه وتعالى – فى الكون ...

– إنه كون محكم ... جملة وتفصيلاً ...

(١) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ، ص (١٥) طبع بمصر .

- وإنه دين محكم - كذلك - جملة وتفصيلاً ...

- وكما أن أى خلل فى بناء الكون ، من شأنه أن يحدث كارثة كونية كبرى ، قد تصيب الحياة فى صميمها ... فكذلك أمر هذا الإسلام ... إنه منزل من الذى أحاط بكل شىء علماً ، والذى يعلم من خلق ، وهو اللطيف أى العليم بدقائق الأمور ، والخبير أى المحيط بكلياتها .

فلا خلل - أدنى خلل - فى هندسة هذا الدين ، بل كل شىء قدّره الله تقديراً ، ووضع له الموازين القسط ، ولو كان فيه أدنى خلل من اختلاف أو تناقض ، لكان من عند غير الله ، ولأضلّ بدل أن يهدى ، ولأوقع العقل البشرى ، والضمير ، فى محنة ، من أشد المحن ...

- وكما يستطيع الفلكى أن يعرف إعجاز الله فى الكون

- وكما يستطيع الطبيب أن يدرك إعجاز الله فى الجسد .

- كذلك يستطيع الحسّ المسلم أن يعى ما فى هذا الدين من إعجاز فى العقيدة والتشريع والأخلاق ، فى دقة تقدر الله حق قدره ، وتقدر الإنسان حق قدره ، بلا تفريط فى حق الله أو إفراط فى حق الإنسان .

- أرأيت إلى (سُور القرآن) ... كيف تنتظم كلاًّ منها (الوحدة العضوية) ، وكيف تمتزج فى كل منها الجوانب العقدية والتشريعية والأخلاقية بلا فواصل ، ولا تقسيم نوعى ، بل كلها تنساب فى مجرى واحد ، وتتفاعل تفاعلاً متكاملاً ؟ ! !

- هذه السور القرآنية بهذا المنهج تعكس لنا الرأى القرآنى فى هندسة الإسلام ، وفى هندسة الإنسان .

فهندسة الإسلام ليست طوابق مستقلة ، يمكن أن ينفصل فيها طابق عن طابق ، وليست - أيضاً - غرفاً مستقلة ، يمكن أن تنفصل فيها غرفة عن غرفة ... وحتى

لو حدث تركيز على جانب فإن المنهجية العامة توجب ربطه بالمجرى العام ، حتى لايفقد تأثيره ... فعقيدة التوحيد مثلاً ، واضحة ، وهى الأساس الصلب والثابت فى البناء الإسلامى – لكن هذه العقيدة لايجوز أن تنفصل عن بقية البناء ، ولا أن يكتفى بها ... فاليهود – مثلاً – وبعض الطوائف فى هذا العالم – هم موحدون – لكنهم – مع ذلك – ليسوا مسلمين .

والشريعة من غير العقيدة مجرد قانون ، فاقد الطعم والروح ، وإنَّ تطبيقها ، من غير العقيدة والأخلاق ، أمر لاعلاقة له بالإسلام .

– ودماثة الخلق ، والشاعرية الحالمة ، والفنون الجميلة ، هذه كلها – مهما كانت قيمتها – إذا انفكت عن الأساسين العقدى والأخلاق ، وعن الاتصال العضوى بالبناء كله فى كل كلياته وجزئياته ، فقدت تأثيرها ، وأصبحت مجرد « أسلوب نفعى » اجتماعى .

والإنسان هو كينونة متشابكة ، فامتزاج الروح والضمير والوجدان بالجسد المادِّى ، بلا فواصل ، ولا حدود مرسومة ، هو أمر بديهى فى الحقيقة الإنسانية .

ويمثل لنا تطبيق كل عبادة من العبادات الإسلامية نموذجاً عملياً للهندسة الإسلامية .

فالصلاة ، ولنأخذها كصورة مصغرة للإسلام ، تتميز باحتوائها لسائر كليات الإسلام ، فالعقيدة والتربية النفسية والجسدية والعقلية والروحية والأخلاقية والاجتماعية موجودة فيها ... فالنية ، والاتجاه إلى القبلة ، وتكبيرة الإحرام تؤدى الدور العقدى ، والقراءة للفاتحة وألوان الذكر تؤدى الجانب النفسى والفكرى ، والحركات تؤدى الجانب الجسدى ، وأسلوب صلاة الجماعة يؤدى الجانب الأخلاقى والاجتماعى .

ونحن بقليل من التمعن نجد سائر الجوانب فى تحليلنا للصيام والزكاة والحج ...

وهكذا تبدو « التكاملية العضوية » متجسدة فى « وحدات » الإسلام أو فى

« غرفه » ، كما تتجسد - كذلك فى البناء كله .

وإذا نحن حاولنا فحص الخطوط والمعالم المتشابكة فى البناء الإسلامى فإننا سنجدها متداخلة ، لكنها فى النهاية نسيج متكامل ، وخطوط واضحة متكاملة ... فنحن إذا نظرنا إلى بناء الإسلام من زاوية سنجده يمتاز بالتالى :

(١) أنه دين الفطرة .
(٢) وهو دين العقل .
(٣) وهو دين العلم والحكمة .
(٤) ودين القلب والوجدان والضمير .

ومن منظور آخر نجد بناء الإسلام يتجلى لنا على أنه :

(١) دين الوحدة الإنسانية ، فهو الإسلام الممتد فى التاريخ .
(٢) وهو دين المساواة بين كل البشر .
(٣) ودين الحرية لكل البشر .
(٤) وهو الدين الواحد لكل البشر ﴿ **إنَّ الدِّين عند الله الإسلام** ﴾ ، ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه** ﴾ .
(٥) وتشريعه تشريع واحد لكل البشر يخضع له - فى أرضه - المؤمنون به وغير المؤمنين به ، بلا ظلم أو إرهاق .
(٦) وهو دين العدل لكل البشر .

ومن منظور ثالث لبناء الإسلام فنجده بنى على خمس :

(١) شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .
(٢) وإقام الصلاة .
(٣) وإيتاء الزكاة .
(٤) وصوم رمضان .
(٥) وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

ومن منظور رابع - نجده - ينتظم ثلاثة أوضاع :

(١) العقيدة .
(٢) والشريعة (عبادات ومعاملات) .
(٣) والأخلاق .

ومن منظور خامس نجده يتميز فى كل خطوطه وهندسته بالآتى :

(١) باليسر ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ .
(٢) بالوسطية ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ .
(٣) بامتداد جسوره واتصالها بين الدنيا والآخرة .
(٤) بالتوازن بين جوانب النفس والروح والعقل والجسد .
(٥) وبالتوازن بين الفرد والمجتمع ، والرجل والمرأة ، والحاكم والمحكوم ، وغير ذلك من الدوائر .
(٦) بسهولة تعاليمه ووضوحها ، وخلوها من التقعر والتكلف الفلسفى ، والأعرابى البدوى كان يأتى إلى المدينة فيسلم ، فيعلمه الرسول ﷺ الإسلام فى مجلس واحد ، فيعاهده على العمل به ، فيقول الأعرابى : إنى لن أزيد ، فيقول الرسول : « أفلح إن صدق » .
(٧) وبشموله لكل الجوانب ، فهو دين ودنيا ﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك ﴾ .
(٨) وبانفتاحه على كل العقول والعصور فهو صالح لكل زمان ومكان ، ومن حق كل فرد تكاملت فيه شروط الاجتهاد أن يدرسه ويفقهه ، ويسمَّى إنتاجه فى فقه الإسلام (بالفكر الإسلامى) . فهو ليس حكراً على طائفة ، وليست له مفاتيح سحرية لايسمح إلا لبعض العقول بالحصول عليها .
(٩) انقسام التكليف فيه إلى عزائم ورخص ، وكما يقول المرحوم « محمد رشيد رضا » ، فإن ابن عباس كان يرجح جانب الرخص ، وابن عمر كان يرجح جانب العزائم ، والناس درجات فى التقصير والجدّ والاعتدال ، فالإسلام يوافق البدوى

الساذج ، والمفكر الكبير وما بينهما من الطبقات ، وهو يستوعب عصر الجَمَل ، وعصر المركبة الفضائية ، وما بينهما ، وما بعدهما .
(١٠) وهو دين شورى ، واجتهاد ، فى سائر المجالات ، والفردية الاستبدادية فى الدين ، أو العلم ، أو الحياة ، ليست من خصائصه .

وهكذا تتعدد دوائر (هندسة) البناء الإسلامى ، لكنها ، مع ذلك دوائر تنتظم اللحمة والسدى ، والمضمون ، والشكل ، وليس ثمة انفصالية أو معالم حاجزة بينها ... بل إن هذا الإسلام لينساب انسياب الماء فى النهر ، والهواء فى الجو ، والروح فى الجسم ...

– إنه حياة فى هذا الكون ، ولهذا الكون ، ولهذا الإنسان الذى استخلفه الله فى الكون .

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[1] .
صدق الله العظيم

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

الفصل الثانى

فوضى الفهم للإسلام
مظاهره ، علاجه

للأمم فى مراحل نموها خصائص تتميز بها ، ولها - كذلك - فى مراحل تخلفها - خصائص فكرية وسلوكية تتميز بها .

وكما أنه فى عصر القوة تتحول الكلمات إلى إشراقات فى الفكر ، وسموّ فى السلوك كذلك فى عصر الضعف ، تتحول الكلمات - بتأثير عقل متلقيها وإناء فكره المشوه - إلى رؤية عاجزة جزئية ، وإلى سلوك هزيل - إن الكلمة هى الكلمة ، والتوجيه - بألفاظه ومضمونه - هو التوجيه . فما بال الأمر اختلف هذا الاختلاف الشديد ؟!

إن تفسير هذا الأمر ليس معضلة من المعضلات ، بل إنه حقيقة من حقائق الحياة يلمسها الناس كل يوم ، ويرونها فى معايشتهم لغيرهم ، لكنهم قلما يربطونها بأصولها الصحيحة ...

فإن الناس - كل الناس - يرون شخصين حصَّلا قدراً معيّناً من العلم ، استويا فيه ، وأصبحنا - بسببه - فى مواقع متصلة بخدمة أمتهم ... فأما أحدهما فإنك ترى علمه قد نفعه ، فهو حريص على إنجاز الأعمال ، وعلى تجويدها ، وعلى خدمة أمته بضمير وإخلاص .

إن (علمه) قد جعله يحسّ بالواجب نحو الضعفاء والجهلاء ، وهو حريص على أداء الواجب .

أما ثانيهما ، فهو يحسّ بأن علمه أعطاه (امتيازاً) ، وأنه أصبح صاحب

(حق) فى الاستعلاء ، وفى النظر إلى الناس من شاهق ، وإنه دائماً ليطالب بمزيد من (الحقوق) دون تفكير فى (الواجبات) ! !

– فكيف تباين موقف هذين الشخصين هكذا ، مع أنهما كانت يجلسان على منضدة واحدة ، ويتلقيان مناهج واحدة ، من أستاذٍ واحد .. وقد حصلا على مؤهل واحد ؟ ! !

إنه لاعيب فى المنهج ولا الأستاذ ، وإنما العيب فى (الوعاء) نفسه .. وكما أن الشمس لاتجعل الأعمى يبصر ، فكذلك حقائق الإيمان وومضات العلم ، لاتهدى الضال .. إلا إذا كان مؤهلاً لذلك ، وإلا إذا تحكم فى قواه المتلقية ، وفتحها على إشعاعات الرقى والسمو ! !

إن القرآن الذى تنزل على محمد ﷺ هو القرآن الذى لا زال بين أيدى المسلمين ، وإن آثار الجاهلية التى لمسها الجيل الأول ، يلمسها المسلمون فى جاهلية العصر الحديث ، وكأن التاريخ يعيد نفسه ..

ومع ذلك يبقى موقفهم (الحضارى) من القرآن والإسلام موقفا * غاية فى الضعف والخمول .. وذلك خلال الحقبة الطويلة المسماة بالعصر الحديث ! ! ومردّ ذلك أنهم لايتلقون الإسلام (للغيير الشامل) ، وإنما يتلقونه أداءً لواجب تقليدى وراثى لاضمير لديهم فى أن يحافظوا عليه .

– إنهم لايريدون الشيوعية الإلحادية .

– وهم لايريدون النصرانية ولا اليهودية ولا الوثنيات ! !

– وهم لايريدون أن يعيشوا – من الناحية الرسمية – دون أن يحملوا – كما قال ابن المقفع – شعار دين ينتسبون إليه .

– فابن المقفع ، كما هو معروف ، عندما قال لجلسائه إنه يريد أن يعتنق

الإسلام فى الغد ثم وجد الوقت ليلا فأخذ يدندن برموز الوثنية ، فسألوه فى ذلك ، فقال إنه يخشى أن يبيت على غير دين ! ! أىّ دين ؟ ! !

فبالنسبة للمسلمين فى عصور الضعف ، ولابن المقفع ، لايحتمل موقفهم من الإسلام إلا هذا الموقف المحدود ! !

يُقْرأ عليهم القرآن – فيدندنون ويهمهمون ... ويأمرهم (بالجهاد) ويعد (المكتنزين) بعذاب جهنم ، فيطربون ، ويهللون ...

ولا مانع من أن يؤدوا الصلاة ، ويحجوا ، ويصوموا رمضان المبارك ، شهر الخيرات والسهرات والفوازير .

إننى أرى أنه من العبث أن نناقش أعداء الإسلام أو أن نشغل أنفسنا بالردّ عليهم قبل أن نحسن نحن المسلمين (فهم الإسلام) ، كما أنه من سوء التخطيط أن ندعو الناس إلى دين نحن لانمثله التمثيل الصحيح ، إن تأثيرنا سيكون محدوداً للغاية ، إن لم يكن معاكساً . وكثير من الذين دخلوا فى الإسلام حمدوا الله على أنهم دخلوه قبل أن يعرفوا المسلمين ، فى فهمهم وفى تطبيقهم للإسلام ...

وبالتالى فإن من أكبر واجبات المخلصين لهذا الدين أن يعيدوا فهم المسلمين للإسلام إلى حقيقته الصالحة ، وأن يقضوا على فوضى الفهم للإسلام فى العالم الإسلامى .

– فالصوفىّ يرى الإسلام هو الصوفية .

– وعدو الصوفية يرى الإسلام هو مجرد مقاومة البدع والطرقية بعد الأداء الرتيب للأركان ! !

– والمحافظ على سنّة رسول الله ﷺ فى ملبسه وهيئته يرى الإسلام فى هذه المحافظة ، ويرفضع الاقتناع بأى مسلم يخالف هذه الهيئة ، حتى ولو كان محافظاً

على الأركان الخمسة ، وعلى ستين شعبة من شعب الإيمان ! !

– والشيعيّ يرى الإسلام هو حبّ آل البيت وسب بعض الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

– والعقلانى يرى الإسلام دين العقل ، والعقل عنده قبل النص ، ودون أن يسأل نفسه : هل يكون هذا ديناً أم نظرية فلسفية بشرية ؟ !

ومن أنكد النكد فى الفكر الإسلامى الحديث .. أن إبادة شعب مسلم بأكمله ، وأن تكبيل شعب مسلم وحرمانه من حقوقه فى ممارسة دينه وحريته ، بل والتنكيل به شر تنكيل ، قد لاتشغل من فكر بعض الناس ، وحتى بعض العاملين للإسلام قدر ما يبذلون من جهد وطاقة فى المحافظة على أشياء ربما يكون ترتيبها فى قائمة الإيمان ، بعد (الحياء الذى هو شعبة من الإيمان) بعشرين درجة ! !

– فإن أمريكا تدرب قواتٍ لاحتلال الخليج ! !

– وإن شعوباً إسلامية تجلد كلها ، وتجرى عملية إبادتها وتصفيتها على مشهد ومرأى الناس . جميعاً .. ! !

– وإن الحرية مختنقة بالنسبة لمعظم المسلمين ، والشورى مفقودة تقريباً .

– وإن الأقليات الإسلامية تخضع لبرنامج إبادة دولية ! !

– إنَّ معظم هذه القضايا لاتحتل من اهتمام بعض المسلمين المكانة الجديرة بها ، بينما تصدَّت قضايا أخرى (ثانوية) أو على الأقل (فى درجة متأخرة) عن هذه القضايا ... بحيث اختلطت الأمور اختلاطاً شديداً ، وأصبح المسلمون لايعرفون الفرق بين الواجب العينى والكفائى ، ولابين المكروه والمباح ، ولا الفرق بين القضايا المصيرية ، والقضايا الثانوية ، تماماً مثلما قيل عن أهل بيزنطة الذين

سقطت مدينتهم وهم مشغولون بالجدال حول الأصل فى الدجاجة : الكتكوت أم البيضة ! ! ومثلما سقطت أثينا من قبل وهى مشغولة بالقضايا التى طرحها السوفسطائيون ، وشلّوا بها (العقل الإغريقى) عن الحركة مع الحقائق فى الاتجاه الصحيح ! !

وإنى أعتقد أنه من الضرورة فى هذا المقام أن أضرب مثلاً بثلاث نوعيات من القضايا اختلطت فيها الموازين لدى المسلمين فى عصرهم الحديث .. فهناك قضايا (أساسية) لكنها تقع فى حيّز النسيان من اهتمام كثير من المسلمين الملتزمين ، وقد ضربنا مثلاً بعدد من القضايا ، ونحن نوجز هذه القضايا فى المشكلات التالية التى تهدد مصير الإنسان المسلم على هذه الأرض ..

فمن هذه القضايا المصيرية المهملة :

١ - حقوق الإنسان المسلم وعلى رأسها الحرية .
٢ - قضية الشورى وحق المسلم فى إبداء الرأى .
٣ - قضية الفقر والجوع لدى شعوب الإسلام وضرورة التكافل الاجتماعى بين المسلمين كلهم على ظهر هذه الأرض .
٤ - قضية الاقتصاد الإسلامى (والبنوك اللاربوية - المؤسسات والشركات الإسلامية) وضرورة تطبيق الشريعة مع العقيدة ووسائل ذلك .
٥ - تخلف المسلمين فى العلوم الطبيعية والرياضية .
٦ - الثورة الإدارية الإسلامية .
٧ - بنك المعلومات الإسلامى .
٨ - استيراد الكماليات وخطره .
٩ - الغزو الفكرى وخطر المدارس والجامعات الأمريكية والتبشيرية .
١٠ - التصفية الجسدية للإنسان المسلم فى العالم .
١١ - الأقليات الإسلامية .

١٢ – الاحتلال الصهيونى وتهويد القدس والجولان وغيرهما .
١٣ – الاحتلال الشيوعى لثلاثمائة مليون مسلم فى روسيا والصين وألبانيا وغيرها .
١٤ – مخطط أندونيسيا وإفريقيا التبشيرى .
١٥ – التسليح الذّرى والنووى للعالم الإسلامى ، وأهميته المصيرية ، فى مواجهة الهندوس واليهود والشيوعيين والنصارى .

وهناك قضايا (متأخرة) تصدَّرت وأخذت من العقل الإسلامى الحديث أكثر من حجمها وحقها ..

ومن هذه القضايا :
١ – رفع الصوت أو عدم رفعه فى كلمة (آمين) .. فى الصلاة .
٢ – إسدال الثوب أو رفعه عن الأرض ...
٣ – الاختلاف فى الحجاب هل هو النقاب الكامل أو يجوز بكشف الوجه والكفين .
٤ – هل الصور الفوتوغرافية حلال أم حرام .
٥ – كيف كان يأكل الرسول أو ينام أو يمشى ! !

وهناك قضايا عولجت بطريقة خاطئة ، واشتط فيها البعض ، وانحرف فيها البعض ، وعلى كل فالملاحظة أن هذه القضايا عولجت بعيداً عن ثلاث قواعد أساسية فى التصور الإسلامى :

وهذه القواعد الأساسية هى :

١ – ضرورة الربط بالبناء الإسلامى الشامل والكامل .

٢ – ضرورة الربط بالقاعدة الأصولية القائلة بأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .
٣ – والربط – كذلك – بالمصالح الكبرى والمردود الفعلى لكل سلوك بعيداً عن التشنج والانفعال المرحلى .

ومن هذه القضايا التى عولجت بطريقة خاطئة :

١ – تكفير طوائف كثيرة من الأمة .
٢ – تكفير الحكام أو تفسيقهم .
٣ – الصلاة فى المساجد أو عدم الصلاة لأنها بنيت بأيدى الحكومة .
٤ – السلفية أفضل أم المذهبية أفضل .
٥ – تعليم المرأة جائز أم لا .. وفى أى حدود ! !
٦ – الأغانى حلال أم حرام .
٧ – اللحية ومكانتها فى السلوك الإسلامى .

إنه لمن الضرورى – فى هذا المقام – أن أقول : إن من حق مسلم (بلغ درجة الاجتهاد) أن يطبق على نفسه مايؤديه إليه اجتهاده ، وإن من الأهمية بمكان أن يعى كل مسلم مجتهد أنَّ اجتهاده لايجعله فيما وصل إليه أفضل من غيره ، فقد يكون غيره أفضل منه فى جوانب أخرى .

والمسلم – أى مسلم – يُقاس بمحصلته الأخيرة ، وبالفائدة النهائية التى تعود من جهوده واجتهاداته على المجتمع الإسلامى ، داخلياً وخارجياً ... ثم بمدى تطابق حركته فى مجملها – مع البناء الإسلامى الكامل المتوازن المنسجم ... ذاك هو المقايس الثابت ... أما غير ذلك ، فهو من الانحراف والهوى ... الممثَّلين فى الجزئية ، والإسقاطات المذهبية ، وفرض النزعة الشخصية ، وما يتبع ذلك من عوامل الانحراف واتباع الشهوات والميل العظيم ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ، يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً** ﴾ . صدق الله العظيم

الفصل الثالث

الإسلام ... كلٌّ لايتجزأ

يقصد بمصطلح « الدين » – مهما اختلف فى تعريفه – الانقياد الكلى لله وفق المنهج الذى يحدده سبحانه[1] فإن التكامل بين الاعتقاد والتشريع والأخلاق ضرورة فى كل دين .

ومهما يكن الجانب التشريعى قليلاً فى أى دين ، فإن هذا الدين لأبدّ وأن يؤدى بالضرورة إلى ربط سلوك الفرد بتعاليم الله ، وإلا كان الدين مجرد تأثيرات نفسية لارصيد لها من الواقع ، كما هو الحال الذى آل إليه أمر النصرانية فى كثير من حقب التاريخ ، بسبب إهمال القائمين عليها للجانب التشريعى والاعتماد على النصح الأخلاقى الفردى ، وبسبب شيوع ذلك الشعار الخادع بين أوساط المؤمنين بها « أعط ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر » – فهذه القسمة الضميرية لايمكن أن يرضى بها الله سبحانه وتعالى ، وليست من طبيعة الدين .. أىّ دين ، « إن ملكوت الله » شاء النصارى أم أبوا ، هو الدنيا والآخرة معاً . ولا يليق بمقامه وقدره « جل جلاله » – أن يشاركه أحد من عباده فى كونه دنيا وآخره .. ! !

ولذا فالشريعة (والأخلاق مكملة لها) إنما هى بمعنى من المعانى ، قلّت تعاليمها أو كثرت جزء من العقيدة الدينية ، وهى هدفها .. والعلاقة بينهما هى العلاقة التى تربط القلب بالدم .

أما الخلل الذى جاء فى التصور النصرانى ، فالحقيقة أن مرجعه ليس إلى

---

(١) انظر فى تعريفات الدين : محمد عبد الله دراز : الدين ص ٣٠ طبعة الكويت .

دين نشاز عن بقية الأديان ، كلا ، فالحقيقة الدينية فى الصلاة وطبيعتها واحدة .

وإنما يرجع الخلل – بفضل ظروف تاريخية – إلى سببين أساسيين :

أولهما : أنه لم يوجد إنجيل عيسى نفسه ، وما وجد ، أو ما عرف من الأناجيل المعتمدة لدى فرق شَعْبِ الكنيسة ، وهى الأناجيل الأربعة (لوقا ومرقص ويوحنا ومتّى) .. هذه الأناجيل ليست أكثر من مذكرات شخصية دوَّنها تلامذة للمسيح عليه السلام بعد مدة من وقوع الأحداث ، وفى جو مضطرب نفسيًّا واجتماعيًّا .

وثانيهما : أن النصرانية ليست إلا امتداداً فى تشريعاتها لليهودية ، ويعتبر العهد القديم « التوراة » الأصل لهذه الأناجيل ، وبالتالى فهو مصدر للنصارى ، كما هو عند اليهود ، وهو بالتالى يسدّ العجز الموجود فى الجانب التشريعى لدى النصرانية ! !

ومعلوم أن التعريف المعتمد للتوراة هو أنها « المجموعة الدينية والتشريعية الأولى »[1] وهى تضم ثلاثة كتب :

١ – كتاب الملوك (توراة موسى الأصلية ، وخمسة إصحاحات) .
٢ – كتاب الأنبياء (بعض الأخبار) .
٣ – كتاب القضاة أو الفريسيين (العهد القديم) .

وقد أضاف اليهود فيما بعد إلى توراتهم بأجزائها الثلاثة ، كتابين آخرين ، هما : التلمود والبروتوكلات .

وقد استمرت الشريعة الموسوية معمولاً بها فى الأوساط اليهودية ، وتكونت من التوارة ، ومن الآثار الشفوية مدونة فقهية تعرف باسم « المشنا » ألفها الحبر « يهودا حكادوش » الذى عاش بين سنة ١٣٥ وسنة ٢١٠ عبرية[2] – فالجانب

---

(١) علّال الفاسى : مقاصد الشريعة ص ٢٧ نشر الدار البيضاء .

(٢) المصدر السابق .

التشريعي فى الدين اليهودى ، الذى يضم فى حناياه جزءاً كبيراً من النصرانية – جانب بارز وغير منكور ، بل وله فقهه واجتهاداته ، التى اعتبر آخرها وأكثرها خطراً وخطيئة هو « البروتوكلات » ! !

– وما يقال عن دور اليهودية والمسيحية يقال كذلك عن دور الأديان كلها . وصدق القرآن الكريم الذى يقول للمسلمين ، مترجماً هذه الحقيقة : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾[1] .

وإذا كانت هذه هى طبيعة البناء الداخلى لكل دين ، فهذه الطبيعة ألصق ما تكون بالإسلام ، إذ إن هذه « الازدواجية » أو « الانفصامية » ليست من طبيعة المبادىء الإسلامية ، لا فى العقيدة ولا الشريعة ولا الأخلاق .

– « فللعقيدة » جانبها « التشريعى » المؤكد لها فى واقع الحياة .

– وما يسمى « شريعة » – قد يندرج أحياناً – فى « الأخلاق » .

– و« الأخلاق » قد تفرض أو تقنن ، وتصير « تشريعاً » .

بل إن الإجحاف بالعقيدة ، أى الإشراك بالله ، قد اعتبره القرآن عملاً منافياً للأخلاق وللتشريع : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[2] والآية الواحدة من القرآن قد ترد ، وهى شاملة لجوانب العقيدة والشريعة والأخلاق دون أية انفصامية . ولنضرب مثلاً بالآية الكريمة : ﴿ **قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** ﴾ .

﴿ **ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم** ﴾ .

---

(١) سورة الشورى : الآية ١٣ .

(٢) سورة لقمان : الآية ١٣ .

﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ .

﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾[1] .

فجمع القرآن فى آية واحدة بين الجوانب الاعتقادية والتشريعية والأخلاقية ..

– و لم تقف الآية بالدين عند ذلك المعنى الضيق الذى حدده الغربيون للدين ، وسارت عليه الكنيسة ، وهو معين « العقيدة الشخصية أو الوجدانية » ذلك الذى لايمتُّ إلى حقيقة الدين ولاطبيعته بصلة موضوعية[2] .

يقول الشاعر الفيلسوف محمد إقبال « إن الإسلام كوحدة روحية مثالية يتضمن مبدأين أساسيين يساعدان الفرد والمجتمع على مسايرة التغير المستمر فى العالم الواقعى ، وهما ختم الرسالة ، والاجتهاد فى الأحكام ! !

– فإقبال هنا يبرز فقهه للإسلام فى أنه « وحدة روحية مثالية » تقبل التطور ، بينما هى محافظة على هذه الوحدة .

– ويقول الشاطبى فى الموافقات : « إن القرآن الكريم كلُّ الشريعة ، وهو عمدة الملة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة » .

أما الداعية الإسلامى أبو الأعلى المودودى ، فيحدد هذه الوحدة تحت عنوان أسماه : « نظام الشريعة كل لايقبل التجزئة » – بقوله :

« هذه الصورة للحياة صورة متشابكة متكاملة ، ولاطبيعة يمكنها البقاء إلا وهى متكاملة الأجزاء والفروع كأن وحدتها كوحدة الجسد الإنسانى لأن الشىء الذى تعرفونه بالإنسان إنما هو جسد الإنسان الكامل[3] .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٥١ .

(٢) انظر محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث ص٢٢٥ طبعة مكتبة وهبة (الثامنة) القاهرة .

(٣) نظرية الإسلام وهديه : مؤسسة الرسالة ص ١٥٩ .

وعلى هذا « فإن جزء الشريعة المعبر عنه – حسب المصطلح الجديد – بلفظ القانون ، إنما هو جزء من خطة متكاملة متشابكة للحياة ، وليس هو فى حدّ ذاته بشىء مستقل حتى يكون من السهل فهمه وتنفيذه مع تجزئته عن كله[1] .

وما يقال عن الشريعة يقال عن العقيدة وعن الأخلاق ! !

أما المفكر الذى هداه الله إلى الإسلام وتسمى باسم محمد أسد فهو يعبر عن هذه الحقيقة الشمولية التى استهوته فى الإسلام بقوله :

« إنَّ الإسلام على ما يبدو لى بناء تام الصنعة ، وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضاً ، ويشدّ بعضها بعضاً ، فليس هناك شىء لاحاجة إليه وليس هناك نقص فى شىء ، فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص ، ولعل هذا الشعور من أن جميع ما فى الإسلام من تعاليم وفرائض « قد وضعت مواضعها » هو الذى كان له أقوى الأثر فى نفسى »[2] .

تلك هى طبيعة البناء الإسلامى .. الذى يمكن أن يسمى إسلامياً ... إنها كطبيعة الكيان البشرى ، وكما لايجوز فى الكيان البشرى فصل الرأس عن الجسم وعن القلب .. فكذلك لايجوز تصور شىء اسمه الإسلام تنفصل فيه العقيدة عن الشريعة أو عن الأخلاق ! !

(١) نظرية الإسلام وهديه – مؤسسة الرسالة ص ١٥٩ .
(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ١٥ .

الفصل الرابع

مصادر الإسلام

يقوم الإسلام فى كل بنائه العضوى والتشريعى والأخلاقى على مصدرين أساسيين هما :

أ – القرآن الكريم .

ب – والسنة الشريفة ، وهما اللذان اصطلح على جعلهما مصادر التشريع الإسلامى الثابتة .

أما القرآن الكريم فهو كتاب الله المنزل على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام بلسان عربى مبين ، منجماً فى مدة ثلاث وعشرين سنة ، والمتعبد بلفظه ومعناه ، ولايجوز عليه التبديل ولا التحريف ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[1] .

ويحتوى القرآن على (١١٤) سورة ، وعلى ثلاثين جزءاً ، وستين حزباً ، و (٢٤٠) ربعاً ، وعلى نحو (٦٢١٩) آية .

وقد قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام القرآن كاملاً على الصحابة ، كما هو بوضعه فى المصاحف قبل وفاته ، وكان الملاك جبريل قد سمعه منه مرتين بترتيبه ذاك الذى هو عليه .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

وبعدما توفى النبى ﷺ ، أمر أبو بكر الصديق – الخليفة الأول بعد رسول الله – والذى تولى لمدة عامين فقط ثم مات إثرهما – أمر أحد الصحابة وهو زيد بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع وسعاف النخل ومراجعته على حفظ الناس ، مع الاستعانة فى ذلك بجيل الصحابة كله ، وهو ذلك الجيل الذى كان يتعبّد بالقرآن فى صلاته وحياته ، وكان من الورع وخشية الله بحيث يستحيل معهم أى تغير أو تحريف ، فى ذلك الكتاب الذى يقدسونه ، والذى لازال عهدهم به حيا لم يجاوز عامين بعد وفاته عليه السلام ، وكان يتعاون على جمعه صحابة صالحون أبرار مثل زيد بن ثابت ، ومثل على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير .

ثم فى عهد عثمان بن عفان (سنة ٣٠هـ) طبعت من هذا القرآن نسخة واحدة (بدون خلافات لهجية قرائية) ووزعت على الأقطار كلها ! ! « ويشتمل القرآن على أحكام فى العقيدة والمعاملات ، وأخرى فى الأخلاق والعبادات ، وآيات الأحكام المتعلقة بالمعاملات فيه ، وهى أقل من غيرها ، وقد قدَّرها الغزالى وابن العربى بخمسمائة آية ، قال الشيخ خضر بن تميم رحمه الله : واقتصروا فى تقديرها على هذا العدد ؛ لأنهم رأوا مقاتل بن سليمان وهو أول من أفرد آيات الأحكام فى تصنيف قد جعلها خمسمائة آية وقد نازعهم ابن دقيق العيد فى هذا التقدير ، وقال : إن مقدار آيات الأحكام لاتنحصر فى هذا العدد ، بل هو يختلف باختلاف القرائح والأذهان ، ومايفتحه الله من وجوه الاستنباط ، والراسخ فى علوم الشريعة ، يعرف أن من أصولها وأحكامها ما يؤخذ من موارد متعددة حتى الآيات الواردة فى القصص والأمثال[1] .

وينقسم القرآن من حيث الإجمال والتفصيل إلى أربعة أقسام :

١ – التشريع المجمل ، وهو معظم العبادات .

---

(١) علال الفاسى : ص ٨٣ .

٢ – التشريع الذى وضح فيه البيان على نحو ما . كالأحكام المتعلقة بالجهاد والدفاع عن النفس والعلاقات الدولية .
٣ – التشريع التفصيلى ، ومثاله القصاص والحدود والحلال والحرام من الطعام ، والإيمان وأصول روابط الأسرة والميراث .
٤ – القواعد العامة للتشريع والاجتهاد[١] .

أما من ناحية « الموضوع » القرآنى ، فهو « كتاب حياة » « ومنهج وجود » « للإنسان » بالمعنى الممتد للوجود أى « فى الماضى والحاضر والمستقبل » . فالماضى هو ما حكاه القرآن عن قصص الأولين منذ بدء الخليقة ، ومروراً بقافلة الصراع بين الأنبياء وأممهم ، وحاضراً من ناحية التشريع الصالح فى الحياة الدنيا – فضلاً عن ملابسات سيرة الدعوة الإسلامية ، والقيم المستخلصة منها ، ومستقبلاً .. فيما يتعلق بالمستقبل الإنسانى على وجه الأرض فى ظل تدهور القيم الإنسانية ، وفقدان الصلة بالله ، وما يلى ذلك من قيامة وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار ... ويتخلل ذلك كله « منهج تربوى » فى تلقى الحقائق والتعامل معها والنظر فى آفاق الكون والنفس ، كما يتخلل ذلك كله نظرية فى المعرفة ، التجريبىّ منها والتجريدىّ .

وفى الوقت نفسه ثمة إجابات شافية عن كل التساؤلات الكبرى حول الماورائية « الميتافيزيقا » وحول الطبيعة البشرية ، وأسلوب التعامل المنسجم مع الفطرة والسنن الكونية ، وكل ذلك يرتبط بالمنهج .. أى بالشريعة ، ولاينفك عن العقيدة ، كما لايمكن إحداث أى فصل – سواء على مستوى التصوّر أو التطبيق ، بين أجزاء القرآن الكريم . ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون** ﴾[٢] .

---

(١) بتصرف واختصار من المرجع السابق .
(٢) سورة البقرة : الآية ٨٥ .

السنة النبوية :

والسنّة هى المصدر الثانى للإسلام – فكراً وتشريعاً – وهى تنتظم كل ما صدر عن الرسول ﷺ ، ودخل فى باب التعليم والتربية لأمته ، سواء كان قولاً منه – عليه السلام – أو فعلاً أو تقريراً .

ودورها أنها تأتى بعد القرآن مبينة وموضحة ومؤكدة ، وقد تأتى بإضافة فرعية لم ينص عليها القرآن – ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون** ﴾[1] .

وقد بقيت السنة محفوظة فى الصدور مدة تزيد قليلاً عن ثمانية عقود بعد رسول الله ﷺ إذ أن تسجيلها كتابة لم يكن مرغوباً فيه ، على نحو عام وشائع ، إبان الفترة الأولى حتى لاتختلط فى الذاكرة المسلمة مع تطاول العقود – بالقرآن الكريم .

لكن – وعلى مستوى خاص جداً – أبيح لبعض الصحابة بتدوين السنة ، مثل إباحة الرسول عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاص – بتسجيل الحديث ، كما أن هناك صحابة عرفوا – منذ أيام الرسول الأولى – بالتخصص فى متابعة الحديث النبوى مثل « أبى هريرة » – أما القرآن فكانت متابعته واجب الأمة كلها .

وفى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١هـ) ابتدأ جمع الحديث .

وثمة رواية أخرى تقول بأن هذا الجمع بدأ قبل ذلك أيام إدارة عبد العزيز بن مروان لمصر (ت ٨٥هـ)[2] .

---

(١) سورة النحل : الآية ٤٤ .

(٢) انظر د. محمد فاروق النبهان : مبادىء الثقافة الإسلامية ص ١٦٨ طبع الكويت .

ويضع الجراح الفرنسى المعاصر « موريس بوكاى » الحديث النبوى فى مرتبة « الأناجيل » من ناحية أنها تنسب إلى رواة ينسبونها إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، ومن ناحية أنها مثل الأناجيل – وعكس القرآن – فى التأخر الذى لحق بتدوينها[1] .

لكن الذى لم يدركه « بوكاى » عن حسن نية – فيما نعلم – أن منهج الفحص العلمى الذى خضع له الحديث منهج يفوق بمراحل كثيرة المنهج الذى اعتمد فى تدوين وتمحيص الأناجيل ...

فالأحاديث أوثق من الأنجيل ، على الأقل ؛ لأن الحديث قد دون بعد ثمانية عقود فقط من وفاة الرسول – لكن الأناجيل – لم يعتمد تدوينها إلا بعد ثلاثة قرون كاملة (مجمع نيقية ٣٢٠م) وقبل ذلك كانت أناجيل عادية كأية أناجيل ، ولو أن اعتماد الأناجيل الأربعة التى تعترف بها الكنيسة جاء نتيجة إخضاع نصوصها للمنهج العلمى ، أو لمنهج النقد التاريخى ، كما جرى فى الحديث بواسطة « علم الجرح والتعديل » الذى ينظر فى « السند » « بأسلوب النقد التاريخى » الذى يعنى تسلسل الحلقات ، وشخصيات الرواة ، وينظر فى « المتن » ومدى انسجامه مع القرآن والحقائق الإسلامية ، وهو مانسميه بالنقد العلمى للنص .

– نقول : لو أن اعتماد هذه الأناجيل جاء نتيجة هذا المنهج لكان من الممكن أن نرتفع « بتوثيقها » إلى المستوى الذى نستحقه – لكن الذى حدث فى « مجمع نيقية » كان أشبه بقرار عسكرى من « قسنطين » بضرورة إيجاد « صلح » بين الوثنية والنصرانية والانتهاء من الخلافات الدينية القائمة على أساس الخلافات بين نصوص الأناجيل التى وصل عددها إلى نحو مائة إنجيل فيما يقول المؤرخون .

ومعروف من مؤرخى الدولة البيزنطية – أن الأناجيل الأربعة التى أقرت ،

---

(١) انظر كتابه السابق الذكر طبع دار المعارف بمصر .

لم تحظ بأغلبية من المجتمعين ، وإنما فرضت كما ألمعنا – بتدخل خارجى من قسنطين .

فالسنة النبوية – كما نرى – أوثق من الأناجيل عند العرض على أصول المنهج العلمى .

والسنة تعنى الطريقة ، أى أنها تنقل إلينا الطريقة التى يتبين بها كيف قام النبى – ﷺ – بترجمة القرآن إلى واقع معاش ، وكيف أفرغ الفكرة الإسلامية فى القالب العملى ، وكيف شكل مجتمعاً إسلامياً على أساس هذه الفكرة ، ثم كيف نظم هذا المجتمع وأبرزه فى صورة دولة كاملة ، وبهذه السنة – أيضاً – نعرف وجهة القرآن الحقيقية ، فكأنها انطباق لمبادىء القرآن على الأحوال العملية تزودنا بسوابق ثمينة للدستور الإسلامى ، ونحصل بها على مجموعة مهمة كبيرة من التقاليد الدستورية[1] .

ومنذ أربعة عشر قرناً من الزمان والسنة تمثل المفتاح الذى يفهم به أسلوب الحياة الإسلامية ، ويفهم به سبيل العودة إليها ، وطريق النهضة الإسلامية بوجه عام ، أليست هى « المثال » الذى أقامه لنا الرسول من أعماله وأقواله ! ! أليست هى التفسير الأول والصحيح للقرآن الكريم ! !

ومن جانب آخر تقوم السنة بدور ذى ثلاث شعب :

١ – فهى تمرّن الإنسان بطريقة فردية منظمة على أن يحيا دائماً فى حال من الوعى الداخلى والضبط واليقظة « اعبد ربك كأنك تراه » .

٢ – وهى تمرن الإنسان على أن يكون نافعاً اجتماعياً ، وإيجابياً فى مواجهة العادات والتقاليد ، ومتماسكاً مع مجتمعه الصغير والكبير[2] .

---

(١) انظر المودودى : نظرية الإسلام وهديه ص ٢٣٨ .

(٢) بتصرف من محمد أسد ص ٨٨ .

٣ - وهى تجعل من إشعاعات الرسالة ، الممثلة فى سلوك الرسول ، حقيقة يمكن أن يتمثلها المسلم ، بمعنى أن هذا المسلم العادى الصغير الموجود فى تركيا أو باكستان أو الجزيرة العربية أو أندونيسيا ، أو مصر ، أو إيران - يستطيع أن يتمثل - مع اختلاف فى مستوى التمثيل - شخصية أعظم مثل أعلى فى التاريخ .

أليس اكتمال جوانب العظمة فى حياة محمد أمراً اعترف به كل الدارسين والمفكرين والمؤرخين - أصدقاء وأعداء - ماداموا قد درسوا بحياد وإنصاف ، حتى ولو لم يؤمنوا به ، ولعل آخر هؤلاء الدارسين الكاتب الأمريكى المسيحى « مايكل هارت » صاحب الكتاب الذى أحدث « كما يقولون » ضجة عالمية ، وترجم إلى معظم اللغات الحية ، ونشر فى عشرات الصحف ، وهو كتاب : « الخالدون مائة أولهم محمد رسول الله » فقد جعل هذا الكاتب (محمداً) عليه الصلاة والسلام فى الدرجة الأولى كما نرى من عنوان الكتاب ، بينما جعل المسيح فى الدرجة الثالثة ، وموسى - عليهم جميعاً السلام - فى الدرجة الخامسة عشرة ! ! ومع أننا ننكر مثل هذا الخلط فى أفكار الكاتب ، والنظر إلى عظمة الأنبياء ، بنفس منظار عظمة البشر العاديين ، الذين كان بعضهم أذىً للبشرية - إلا أن مانركّز عليه هنا هو هذه الشهادة الإنسانية العامة المعترف بها لسموّ شخصية نبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو الشخصية التى تدور حولها السنة ، قولاً وفعلاً وتقريراً .

والسنة قسمان : متواترة ، وأحاديث آحاد .

فالمتواتر مانقل عن النبى - ﷺ - برواية جماعة ممن يؤمن تواطؤهم على الكذب ، عن جماعة مثلهم حتى يصلوا إلى الرسول ...

« وكل ما ليس كذلك فهو حديث آحاد .

والأحاديث المتواترة نادرة جداً ، وقد أفردها العلماء بالتأليف ، وممن ألف

فيها ابن حجر العسقلانى ، والسيوطى ، ومن المتأخرين محمد بن جعفر الكتانى .

ولاخلاف بين الأئمة فى الحديث المتواتر ، ويستدل به فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق العامة والخاصة ، أما حديث الأحاد ، فذهب جمهور الأمة إلى أن الحديث الصحيح منه يستدل به فيما عدا العقائد .

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[1] .

﴿ وما كان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[2] **﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾**[3] .

وتصرف الرسول عليه السلام ينقسم أربعة أقسام :

١ - تصرف بالإمامة كالإقطاع وإقامة الحدود وإرسال الجيوش ونحوها .
٢ - تصرف بالقضاء كإلزام أداء الديون وتسليم السلع ونقد الأثمان وفسخ الأنكحة .
٣ - تصرف بالفتيا كإبلاغ الصلاة وإقامة المناسك .
٤ - تصرف متردد بين هذه الأقسام[4] [والجمهور على أن هذه الأقسام كلها من باب التشريع والتوجيه] .

أما الجانب المتطور « الاجتهادى » فى الحياة كأمور الحرف والمهن وتدبير الحروب والزراعة وطرق المعيشة والبناء وما إلى ذلك ، فهذه كلها أمور غير تشريعية ، ويصح فيها - وحدها - قول الرسول عليه الصلاة والسلام « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٧ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .
(٣) سورة النساء : الآية ٨٠ .
(٤) انظر علال الفاسى : مقاصد الشريعة ص ١١١ .

وقد نبغ فى فن الحديث كثيرون اشتهر منهم فى عصر الصحابة أبو هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، والسيدة عائشة ، وعبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدرى .

كما اشتهر منهم فى عصر التابعين كثيرون منهم سعيد بن المسيب ، والزهرى ، ومحمد بن سيرين .

بيد أن أول من صنف فى الحديث الصحيح « كفنٍّ » قائم على التمحيص « الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ » ، ثم جاء بعده الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى المتوفى (٢٦١هـ) .

وقد التزما بمنهج علميٍّ صحَّ أن يقول فيه الإمام ابن تيمية :

« ليس تحت أديم السماء كتابٌ أصَحُّ من البخارى ومسلم بعد القرآن » ! !

الفصل الخامس

القرآن

بناءٌ ثقافى متفرِّد

فى سنة أربعين من حياة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الموافقة لسنة ٦١٠م ، ووسط سكون هائل كان يحيط به أثناء خلوته فى جبل حراء أو جبل النور فى شمال مكة بعيداً عن مجتمع مكة الوثنى ، نزل جبريل على محمد بأول آية فى القرآن الكريم ، مستفتحاً بها عصراً جديداً يصح أن نسميه (بالعصر القرآنى) أو بعصر (العلم القرآنى) ، فقال له :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

وعندما حاور محمد جبريل ، لمَّا قال له : اقرأ فردَّ عليه بقوله : ما أنا بقارىء – فكأنما كان الرسول محمد عليه الصلاة والسلام يصور حالته « كنبى أمى » ويصور – فى الوقت نفسه – حال الأمة التى ينتسب إليها ، فما كان محمد بأقل من مستوى أمته ، بل إنه كان فى ذروتها من الفضل والعقل والشرف والذكاء ... فإذا كان حاله – مع هذا – هو الأمية ، فإن أحوال أمته العامة لابد أن تكون كذلك فى هذا الباب ، ولابد أن تكون أدنى من ذلك فى سائر الأبواب ! !

– على أن هذا النبى الذى قال لجبريل : **﴿ ما أنا بقارىء ﴾** معترفاً بحقيقة موضوعية لاشك فيها – لم يلبث – مع وضعه هذا – أن نشر بين أرجاء الإنسانية كلها – من آمن ومن لم يؤمن – دعائم دين هو أعظم الأديان وخاتمها ، وَأَسَّسَ

حضارةً كانت – وما زالت – الذروة فى الحضارات ، وصنع من الوسادة البشرية الخام التى واجهها أعلام ثقافة تفوقت على ثقافة عصرها بما احتوته بين أحشائها من موروثات ثقافية يونانية ورومانية ...

– فمن أين لهذا النبى الأمّى – غير القارىء – بهذا الأمر كله ؟

– من أين له العقيدة والشريعة والثقافة والحضارة ؟

– إنه القرآن .... ! !

– إنه ذلك الكتاب المحكم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ... فهو الذى أتى بهذا كله ، وهو الذى صنع – فى الواقع البشرى – هذا التحول البشرى العجيب .

فَبَدْءاً من ليلة السابع عشر من رمضان (فبراير ٦١٠م) التى بدأت فيها الظاهرة القرآنية رحلتها فى الأرض ، وحتى اكتمال الرحلة بعد ثلاثة وعشرين عاماً – نجح هذا الكتاب الكريم فى أن يقدم إطاراً متكاملاً للثقافة المتفوقة ، وللحضارة الصحيحة ، كما نجح فى أن يقدم – من خلال سلوك الرسول ﷺ – تجربةً حية نموذجية للإنسان الكامل ، وللنموذج الحضارى الأعلى ، كما نجح – فى الوقت نفسه – أن يقدم – من خلال حياة الصحابة والتابعين – نماذج متفاوتة فى الواقع البشرى ، تدور حول النموذج الأعلى وتقدم صيغاً مختلفة لاتخرجُ عنْ الأصول الثابتة ، أو الإطار العام .

وقد أمكن للقرآن الكريم أن يقدم نماذجه بتدرج ينسجم مع الفطرة ، فإنه قد نزل منجماً وفقاً للحوادث ، فكان تدرجه هذا ملائماً لتطور العقل البشرى فى رحلة صعوده من الجاهلية إلى الإسلام وملائماً للإمكانية البشرية التى يصعب عليها التفاعل مع الأسلوب « الثورى » فى العلاج ، بينما هى تنسجم كل الانسجام مع الأسلوب المتدرج الهادىء الذى يعتمد الأساليب الإنسانية الملائمة للحقيقة الإنسانية ، وللكيان الإنسانى .

القرآن والثقافة العربية :

عندما نزل القرآن الكريم ببيانه العربى الفصيح بهر المشركين الذين كانوا قد وصلوا فى الجزيرة إلى القمة فى البيان والفصاحة حيث كانت تخلع ألقاب التشريف والتكريم علانية فى أسواق أدبية على الشعراء والخطباء .

وما إن ظهر القرآن حتى اكتسح الحماس العربى للشعر والنثر ، وأنزلت المعلقات السبع من باب الكعبة ، واتجهت كل الأسماع إلى هذا الإعجاز الجديد فى اللغة العربية .

فلغة القرآن مادة صوتية تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر وخشونة لغة أهل البادية وتجمع فى تناسق حكيم بين رقة الأولى وجزالة الثانية ، وتحقق السحر المنشود ، وهذا التوفيق الموسيقى البديع بينهما .

وكل هذا فى موضوعات غير مطروقة فى الأدب الجاهلى ، ونادراً ماتعرض لها الشعراء والخطباء إلا من بعيد وبصور مبهمة وموجزة ، بحيث يحق لنا أن نؤكد بدون تردد أنه من الناحية اللغوية البحتة كان ظهور القرآن خلقاً للغة جديدة ولأسلوب جديد[1] .

ولم يكن العرب فى جاهليتهم مؤهلين لتقعيد لغتهم ، بل كانوا يكتفون فيها بالسليقة البدوية لكن لما جاءهم القرآن ، وتتلمذوا فى مدرسة اللغة القرآنية واختلطوا بالشعوب والثقافات غير العربية خافوا على كتاب ربهم وعلى لغته وقراءته ، فدفعهم هذا إلى استحداث علم النحو ، وحملهم ذلك على مشافهة الأعراب ، والأخذ عنهم حتى يصلوا إلى قاعدة فى الرفع والنصب والجر والجزم يضعونها ، وكانت لهم فى هذا المجال حركة عنيفة ومجهود كبير توج بكتاب « سيبويه » (الكتاب) وما كان يكون لولا القرآن[2] ، وقد وردت فى القرآن

---

(١) د. محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص١١٥،١١٦ بتصرف طبع دار القرآن الكريم بالكويت ١٩٧١م .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٣١٠ الطبعة الخامسة — مصر .

ألفاظ لغوية ، فضربوا أكباد الإبل إلى البادية يستفسرون عن لفظ ، أو يقفون على تعبير ، ودعاهم ذلك إلى حفظ الأشعار ، ففيها أحياناً ما يفسر لفظاً قرآنياً أو يساعد على فهم تعبير قرآنى ... وقد عنوا كذلك بلهجات العرب وكيف تنطق تميم وقريش ، ومن الذى يميل ومن الذى لايميل ، ومن يبدل ومن لا يبدل ، لتفهم قراءات القرآن ، كما عنوا بالمعرب والأصيل لما فى القرآن من معرب وأصيل .

بل وَجَدَّ بعض العلماء فى البلاغة يضعون لها القواعد ويستنتجون القوانين تفهماً لمواضع الإعجار فى القرآن وتذوقاً لبلاغته[1] .

وما يقال فى اللغة والنحو والبلاغة يقال فى سائر فنون العربية من أدب وشعر وخطابة ، فكلها قد تأثرت بلغة القرآن وبالموضوع القرآنى ، وأصبحت ترجمة لكثير من الحقائق القرآنية ولحركة القرآن الكريم فى الحياة البشرية .

بل إن أثر القرآن فى هذا المجال لم يقف عند العرب الأصلاء بل تعداه إلى العناصر غير العربية التى تتلمذت على القرآن ، ووجدت من العبادة لله والالتزام بدينها الذى رضيته أن تهتم بلغة كتاب ربها ودينها ، فأقبلت على العربية وآدابها تدرس وتقارن وتجمع بين ثقافتها الماضية وثقافتها الجديدة بروح من الولاء للدين الجديد وثقافته – فى الأعم الأغلب – وكثير من هؤلاء تعربوا بعد أن كانوا فرساً أو هنوداً أو أرواماً أو بربراً . وظهر منهم العمالقة حتى فى اللغة العربية نفسها .

القرآن والثقافة العلمية :

من بين سائر الكتب المقدسة يقف القرآن الكريم الذى حفظه الله من التحريف – منفرداً فى نظرته إلى العلم والعلماء .

وإن قيمة النظرة القرآنية للعلم والعلماء لتتجلى أكثر إذا قارناها ، ليس بالكتب

(١) المرجع السابق ص ٣١١ .

السماوية الأخرى وحسب ، بل إذا قارناها بالأحوال التى كان عليها العالم يوم نزول القرآن .

إنه عالم أقل مايقال فيه إنه كان يتعبد بالجهل وكانت عقيدته الشعوذة ، وكان العقل فيه محروماً من حق العمل . وكان الصراع فيه ضارباً بين رجال اللاهوت ورجال العلم .

فى هذا المناخ يظهر القرآن الكريم مستهلاً آياته بافتتاح عصر العلم والقراءة ﴿ **اقرأ باسم ربك** ... الآيات ﴾ ويحشد القرآن نحو خمسين آية لتحريك العقل البشرى كما يحشد عشرات الآيات فى إيقاظ الحواس من سمع وبصر ولمس وعشرات أخرى فى إيقاظ التفكير والفقه وطلب الحجة والبرهان ، وقد جاءت مادة العلم مراداً بها علم الناس لاعلم الله فى نحو ست مائة آية :

- وجاءت كلمة الرأى بمعنى العلم فى نحو ثلاث وعشرين آية .
- وجاءت كلمة النظر بمعنى العلم فى نحو ثلاث وعشرين آية .
- وترددت مادة العقل فى تسع وأربعين آية .
- والقلب بمعنى العقل فى مائة وثلاث وثلاثين آية .
- ووردت مادة الفكر فى ثمانى عشرة آية .
- وترددت مادة الفقه بمعنى الفهم فى عشرين آية .
- والتدبر والفهم والرشد فى أربع وعشرين آية .
- والذكر بمعنى العلم فى نيف ومائتين من الآيات .
- والحكمة والعبرة فى سبع وعشرين آية .
- والكتابة بمعنى الخط فى نحو ثلاث مائة آية .
- والقلم فى أربع آيات[1] .

---

(١) انظر : د. أحمد الحوفى : القرآن والتفكير ص ١١ نشر بالقاهرة .

وقد كان من تقدير القرآن للعلم والعلماء أنه قرنهم بالملائكة وجعلهم الذين يخشون الله .

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾[1] ...

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[2] ... [المقصود علماء الشريعة ثم يتبعهم أصحاب العلوم الأخرى] .

ولم يفرق القرآن فى حديثه عن العلم ، ولا فى تقديره للعلماء بين علوم وعلوم ، وإنما الفيصل المعتمد هو أن يكون العلم علماً حقيقياً لا دجلاً ولا شعوذة وأن يكون علماً مقصوداً به النفع والخير وليس الضلال والاستعلاء ، وأن يصحبه العمل الجاد المثمر .

أما ما شاع بين المسلمين فى عصور ضعفهم من أن هناك علماً دينياً وآخر دنيوياً ، وأن العلم الدينى .. أفضل من العلم الدنيوى ، وأنه إلى الأول يجب أن تتجه العزائم ، أما الثانى فمرتبته متأخرة وثوابه قليل عند الله ... إن هذه المقولة لا أصل لها فى القرآن الكريم ، بل إن القرآن ليهتم بالحث على معرفة الله من خلال « الكون » و« النفس » أيما اهتمام : **﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾**[3] **﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾**[4] ... فعلوم الطبيعة والفلك والنفس والجيولوجيا والبحار والتاريخ والحضارات هى الطريق القرآنى الصحيح لمعرفة الله معرفة يقينية ، وهى أجدى من العلم والمعروف باسم (علم الكلام) ومن سائر علوم الفلسفة الكلامية والعلوم التى تعتمد على التقديرات الافتراضية الخيالية .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨ .
(٢) سورة فاطر : الآية ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٩٠ .
(٤) سورة الذاريات : الآية ٢١ .

بل إن العلوم لتساعدنا على فهم آيات القرآن وعلى معرفة بعض جوانب إعجاز هذا الكتاب الكريم وإن كان ذلك لايعنى أن القرآن كتابٌ علمى بالمعنى الفنى فهو لايتوفر على دراسة فرع معين من فروع العلم ولايبحث مسائله ومشكلاته ويعالج نظرياته ، ولكن القرآن مع ذلك قد تعرض بصفة عامة لكل ما فى هذا الكون من ظواهر ونواميس طبيعية بحيث لايكاد يوجد علم من العلوم البشرية لم يَمَسهُ القرآن عن قرب أو عن بعد ، بحيث إن كثيراً من آيات القرآن تدخل فى باب المباحث العلمية البحتة[١] .

وإننا لنلاحظ أن كثيراً من الحقائق العلمية التى يسوقها القرآن تتفق تماماً مع آخر ماتوصل إليه العلم الحديث ، وذلك مثل المنبع الخفى الذى يخرج منه العنصر الجنسى للإنسان والمراحل التى يمر بها الجنين ﴿ **خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾[٢] ﴿ **فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة** ﴾[٣] وعدد التجويفات المظلمة التى يمر بها الجنين فى مرحلة الخلق ﴿ **يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث** ﴾[٤] والمنشأ المائى لجميع المخلوقات الحية ﴿ **وجعلنا من الماء كل شىء حى** ﴾[٥] وتكوين المطر ، ودائرية السماء والأرض وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب ومسيرة الشمس إلى نقطة معلومة وتعايش الحيوانات فى جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية ووصف حياة النحل وثنائية النباتات والمخلوقات الأخرى ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون** ﴾[٦] وهى حقيقة علمية كان يجهلها عصر الرسول ﷺ ، والتلقيح

---

(١) انظر بتصرف : أحمد حسين : فى الإيمان والإسلام ص ١٣٦ طبع القاهرة (الثانية) .
(٢) سورة الطارق : الآية ٦ – ٨ .
(٣) سورة الحج : الآية ٥ .
(٤) سورة الزمر : الآية ٦ .
(٥) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .
(٦) سورة يس : الآية ٣٦ .

بواسطة الرياح[1] ، إلى غير ذلك من الحقائق العلمية التى تمثل لوناً من الثقافة سبق به القرآن .

وكثيراً مايعمد القرآن إلى ترك النافذة مفتوحة أمام التطور البشرى .. فعندما يعدِّد وسائل المواصلات يقول : ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون** ﴾[2] وعندما يقسم للناس بما يبصرون يقول أيضاً : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون** ﴾[3] وعندما يخاطب الرسول يقول له : ﴿ **وقل ربى زدنى علماً** ﴾ وعندما يخاطب الناس فى مسألة الروح يقول لهم : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[4] ..

وهكذا يحثُّ القرآن البشرية على التزود المستمر دون كلل أو غرور من العلوم ، بعد أن وضع لهم مفاتيح لكل العلوم وسبر أغوار كلية فى كل المعارف بحيث يقيم الحجة ، ويفتح منافذ الضوء .

ويستطيع الباحث أن يرجع إلى تلك الدراسات المتخصصة التى حاولت أن تقارن بين آيات القرآن والمكتشفات الحديثة ، وهى دراسات تفرغ لها أطباء وعلماء ومفكرون كثيرون من أبرزهم الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا كبير أطباء مصر والأستاذ الطنطاوى جوهرى والأستاذ محمد فريد وجدى ، والأستاذ عبد الرزاق نوفل ، والأستاذ نديم الجسر ، والدكتور بشير التركى صاحب مجلة العلم والإيمان ، والدكتور مصطفى محمود ، وغيرهم .

وعلى الرغم من الاعتراضات التى تثيرها مدرسة أمين الخولى وعائشة عبد الرحمن ضد هذا الاتجاه – فإن إعجاز القرآن العلمى وسبقه وتفرده ، وعدم وجود أى تعارض بين حقائق القرآن وقوانين العلم التى وصلت إلى مرحلة القانونية ،

---

(١) انظر : د. محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن ص ١٧٦ .

(٢) سورة النحل : الآية ٨ .

(٣) سورة الحاقة : الآية ٨٣ ، ٩٣ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٨٥ .

فضلا عن المنهج القرآنى فى الحث على طلب العلم وفتح كل نوافذه .. كل ذلك يعطى القرآن تفردية عظمى بين سائر الكتب المنزلة .

القرآن والثقافة الفنية :

لم يقف اهتمام المسلمين بالقرآن عند دراسته اللغوية والأدبية والبلاغية التى اعتبروها أبرز أبواب حفظه ، بل إنهم اعتبروا من أهم أبواب حفظه الاهتمام بكتابته ورسم حروفه وتجليده .

وإذا تذكرنا أن الله لم يفرض على المسلمين رسماً بعينه لكلمات القرآن ، فقد كان المجال بالتالى مفتوحاً لكتابته بأكثر من خط غير الخط العثمانى ، كما أنه أمكن تمييز حروفه المتشابهة بالتنقيط وضبطت الكلمات بالحركات ، وقسم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأخماس وأعشار[1] .

وقد اهتم المسلمون بالشكل الخارجى للمصحف ، وأخذ هذا الشكل أحد ثلاثة وجوه : شكل قريب من المربع ، وشكل يزيد العرض فيه عن الارتفاع ، وشكل يزيد الارتفاع فيه عن العرض ، والشكلان الأول والثانى نادران ، والثالث معروف ويعرف بالمصحف العمودى . ويلاحظ أن المصاحف ذات الشكل الأول والثانى مكتوبة عادة بالخط الكوفى ، وبعض هذه المصاحف تشبه مصحف الإمام أى من غير تنقيط الإعراب أو تنقيط تمييز الحروف المتشابهة ... أما المصاحف ذات الشكل العمودى فبعضها بالخط الكوفى وبعضها بالخط النسخى[2] .

ومن أبرز من اشتهر بكتابة خط النسخ الفنى ثلاثة خطاطين هم ابن مقلة (ت٣٢٨هـ) وابن البواب (ت٤١٣هـ) وياقوت المستعصمى (ت٦٩٨هـ)..

---

(١) القرآن ثلاثون جزءاً وستون حزباً وكل سورة مقسمة إلى خميسات أى خمس آيات ، وعشيرات أى عشر آيات .

(٢) د. محمد مرزوق : المصحف الشريف ص ٦١ بتصرف طبع بمصر .

وعلى إثرهم ، توالى الخطاطون الذين حذوا حذوهم ، والذين تفننوا بعدهم .. حتى كان آخر ماتذكره من الخطوط العربية (الخط الغبارى) الذى يعتبر غاية فى الدقة والصغر كأنه حبات الغبار ، والحروف فيه لاتكاد تُميَّز بالعين المجردة ، وقد ابتكره الأتراك العثمانيون واستعملوه فى كتابة المصاحف الصغيرة التى تحفظ فى علب صغيرة من الفضة أو الذهب ، وتكون واسطة العقد فى القلادات التى تزين الصدور[1] .

وفى الزخرفة كان القرآن مبعث الاهتمام بهذا الفن حتى أصبح فن الزخرفة الهندسية الإسلامى فنّاً منقطع النظير وقد نجح الفنان المسلم فى أن يبعث فى الزخارف الهندسية روحاً جديدة رأت النور لأول مرة على يديه ، وسمت الزخارف النباتية إلى درجة من الجمال الفنى لم تكن لها من قبل ، وابتكر فيها صورة جديدة غير مسبوقة وهى المعروفة باسم « الأرابسك » ويطلق عليها بعضهم اسم (الرقش) و(التوشيح) أو (التوريق) وهى كلمة عربية تعنى التوالد والنمو .

وفى هذا الفن الزخرفى لاءم الفنان المسلم بين الأجزاء والتكوينات ونسَّق بين العناصر المختلفة تنسيقاً جعل التكوين الزخرفى يبدو وكأنه شىء جديد يختلف عن نظيره فى الطبيعة .

والحقيقة أن الانطلاقة الجمالية للفنان المسلم عبر أساليب مختلفة إنما ترجع إلى التوجيهات الكثيرة التى غرسها القرآن فى الذاكرة المسلمة والوجدان المسلم .

فالجمال الفنى خصيصة تنضح بها كل آيات القرآن ، ويعبر عنها القرآن فى مجموعة كسور مستقلة وكموضوعات ، فضلاً عن التوجيهات القرآنية المباشرة التى تحثُّ على الجمال وتمهد له الطريق : ففى سورة النحل يقول القرآن ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين**

---

(١) المرجع السابق ص ٨٤ .

تريحون وحين تسرحون ﴾ .. ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** ﴾ ... وفى سوة الأعراف يقول القرآن : ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ – وفى سورة الغاشية يقول القرآن : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ .... وهكذا يجد الفنان المسلم نفسه ، وكأنه مندفع لاستجلاء آفاق الجمال الكونى والإنسانى بتوجيه من القرآن نفسه فهو إذ يرتفع بفنه وإذ ينميه إنما يطبق توجيهاً قرآنياً سامياً ، ويمشى فى درب من دروب الثقافة القرآنية الفسيحة الدروب .

القرآن والثقافة الإسلامية :

لم يكد المسلمون ينتهون من فتوحاتهم الكبرى فى العصر الراشدى وصدر العصر الأموى حتى وجدوا أنفسهم يواجهون تحدياً آخر أكبر وأخطر ... إنه التحدى الحضارى المتمثل فى تراث فارس والروم ومابقى موجوداً من تراث الهيلينية القديمة والهيلينية الحديثة المعروفة باسم (الهيلينستية) وكان على المسلمين أن يقرءوا أما أن يخدعهم هذا الانتصار السياسى والعسكرى ، الذى خدع من قبلهم الإسكندر الأكبر المقدونى فكان من جرّائه أن خضع المستعمرون الإغريق أنفسهم لفاتحين آخرين ، و لم تتأثر المجتمعات التى فتحوها بأية قيمة من قيمهم ، وبعدما يقرب من عشرين عاماً فقط من وفاة الإسكندر تمزقت إمبراطوريته بلا عودة إلى ثلاث ممالك (عام ٣٠١ ق .م) ومن ثم توالت تمزقات كبيرة أخرى خلال القرن الثانى قبل الميلاد . هذا عدا أن الإسكندر لم يستطع أن ينقل الفكر اليونانى إلى البلاد المفتوحة ، بل كان يتبنى دون قيد أو شرط الأفكار التى كانت سائدة فى البلاد المغلوبة ، ولم يكن خلفاؤه خيراً منه فى هذا المجال[1] .

---

(١) نقلاً عن : محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن ص ٥٣ بتصرف .

كان على المسلمين أن يختاروا نموذج الإسكندر الأكبر الذى سبقهم ويقبلوا الذوبان فى الثقافات الغالبة فى البلاد المفتوحة ، أو أن ينهضوا فى معركة لاتقل ضراوة عن المعركة العسكرية والسياسية ليثبتوا دعائم ثقافة قرآنية تعتبر فتحاً حقيقياً يضمن لمبادئهم الكلمة الأخيرة ، ويحسم المعركة لصالح الثقافة القرآنية والحضارة الإسلامية .

وقد اختار المسلمون الأسلاف الحل الحضارى الصحيح ، واستجابوا للتحدى الثقافى أروع استجابة ممكنة .

وفى أقل من نصف قرن من آخر الدولة الأموية إلى صدر الدولة العباسية كانت أغلب العلوم قد دونت ونظمت ، سواء فى ذلك العلوم النقلية من علوم القرآن والحديث والفقه وأصوله ، وعلوم اللغة والأدب على اختلافها ، والعلوم العقلية من علوم الرياضة والمنطق والفلسفة والكلام .

وكان نشاط المسلمين فى ذلك يسترعى الأنظار ويستخرج العجب ، وليس هناك من نشاط يشبهه إلا نشاط العرب فى فتوح البلدان . وقد نظم العلماء أنفسهم فرقاً كفرق الجيش ، كل فرقة تغزو الجهل أو الفوضى فى ناحيتها حتى تخضعها لنظامها . ففرقة اللغة ، وفرقة الحديث ، وفرقة النحو ، وفرقة الكلام - وفرقة للرياضات وهكذا ، وهم يتسابقون فى الغزو والانتصار وتدوين العلم وتنظيمه تسابق قبائل العرب فى الفتوح والغزوات . كل قبيلة تود أن تكون السابقة فى الميدان ووجد فى ساحة الميدان العلمى قواد بارزون يتنافسون فى الابتكار ، فإذا فاز أبو حنيفة بوضع الفقه ثارت حماسة الخليل بن أحمد فيضع العروض ويرسم المنهج لحجم اللغة ، بل يريد بعقله الجبَّار أن يضع نوعاً من السحاب تمضى به الجارية إلى البائع فلا يمكن ظلمها ، وهكذا فى سائر الفروع[1] .

وبالطبع ، فإننا لانستطيع فى هذا المجال أن نتابع هذه الحركة الثقافية التى تشبه

---

(1) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٢ الطبعة التاسعة ١٩٧٩ - مصر ص ١٩ .

حرباً ضارية انتهت بترسيخ قواعد الحضارة الإسلامية وتثبيت أصالتها الثقافية ، وإخضاع الشعوب المغلوبة حضارياً كما خضعت عسكرياً وسياسيا .

وقد كانت علوم التفسير والقراءات والحديث والفقه وما يسمى بعلوم القرآن من ناسخ ومنسوخ وأسباب نزول ، فضلاً عن علوم السيرة والتاريخ وعلم الرجال والجرح والتعديل ، وعلم الكلام (التوحيد) – من أكثر العلوم حظوةً بالاهتمام .

وقد انقسمت هذه الأنشطة إلى مدارس واتجاهات ، فهى تنتسب أحياناً إلى موقع جغرافى كمدرستى الكوفة والبصرة أو مدرسة الحجاز ، وتنتسب أحياناً إلى إعجاز فى البحث كمدرسة الحديث أو الرأى .. وكان هناك تنافس علمى كريم بين أقطاب هذه المدارس فالمشارقة ينافسهم المغاربة وكل بلد يباهى بمن فيه من العلماء والفقهاء .

وكان أول من صنف فى علم التفسير (عبد الملك بن جريج) المتوفى سنة ١٤٩هـ ومن أشهرهم ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ ، والرازى صاحب (مفاتيح الغيب) والزمخشرى . والبيضاوى وغيرهم . وفى عمل إعجاز القرآن ألف الجاحظ (نظم القرآن) ، وألف غيره كالجرجانى والباقلانى والرومانى والقاضى عياض ...

وفى علوم القرآن ألف السيوطى كتابه الإتقان فى علوم القرآن ..

وفى الحديث نبغ الكثيرون اشتهر منهم فى عصر الصحابة أبو هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وأم المؤمنين عائشة ، وعبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدرى واشتهر فى عصر التابعين كثيرون منهم سعيد بن المسيب والزهرى ومحمد بن سيرين وسفيان بن عينية (ت١٩٨هـ) ، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٦هـ) وإسحاق بن راهويه (ت٢٣٨هـ) ، ثم جاءت مدرسة الجمع والتمحيص بعد أن شاع الوضع ، وقد بلغ القمة فى هذه المدرسة الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ ، ثم جاء بعده

الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى (٢٦١هـ) ، وقد التزما بمنهج علمى دقيق صَحَّ أن يصفه الإمام أحمد بن تيمية بقوله :

(ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخارى ومسلم بعد القرآن) .

– وفى الفقه ظهرت مدارس تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ، وقد ازدهرت الحركة الفقهية كل الازدهار وأغنت المسلمين عن القوانين الوضعية الفارسية والرومانية ، بل هيمنت شريعة الله على أملاك الإمبراطوريتين المنهارتين ، وكان أقطابها فى العصر الأول عبد الله بن عمر ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود .

– وحتى القرن الرابع الهجرى كان قد برز نحو ثلاثة عشر مذهباً فقهياً ، يمثل كل منها مدرسة تشريعية لها منهجها ، ولها أصولها التى لا تخرج عن كتاب الله ولاسنة رسوله ، وعلى رأس هذه المذاهب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة (ت١٧٩هـ) والإمام أبو حنيفة إمام أهل الرأى والعراق (ت١٥٠هـ) ، والإمام أبو محمد بن إدريس الشافعى (ت ٢٠٤هـ) ، والإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) والإمام الليث بن سعد ، والإمام الأوزاعى والإمام الحسن البصرى ، والإمام سفيان الثورى ، وداود الظاهرى وغيرهم .

ولم تكن هناك حواجز ثابتة بين هذه الحركة الفقهية النشطة بل ذهب كل منهم يأخذ عن الآخر ويرحل إليه ، فاستفاد العالم العراق من الحجازى ، والمصرى منهما ، وعملت الرحلات عملها فى إطعام كل شجرة من أشجار العلم كما عملت فى تقريب ألوانها وطعومها ، ومن ذلك التشريع ، فنرى ربيعة الرأى المدنى يرحل إلى العراق ثم يعود إلى المدينة ، ومحمد بن الحسن العراقى صاحب أبى حنيفة يرحل إلى المدينة ويقرأ موطأ مالك ويعود إلى العراق ، والشافعى يرحل إلى المدينة والعراق ومصر ... وهكذا .

وكما اهتم المسلمون بالتفسير والحديث والفقه والكلام اهتموا كذلك بالسير والمغازى والتاريخ ولم يكتفوا بأن تكون هذه العلوم جزءاً من الحديث بل إنهم طوروا مهمتهم حتى وصلوا إلى علم التاريخ بمعناه الفنى الدقيق ، آخذين فى الاعتبار كل ماورد بهذا الشأن فى كتاب الله ، وفى كتب السنة الشريفة المعتمدة .

وكان أول من عرف بالتأليف فى المغازى أبان بن عثمان بن عفان (ت١٠٥هـ) وعروة بن الزبير (ت٩٢هـ) وشرحبيل بن سعد (١٢٣هـ) ووهب بن منبه (ت١١٠هـ) ، ثم جاءت بعد هؤلاء طبقة عُنيت بالمغازى من أشهرهم عبد الله بن أبى بكر بن حزم الأنصارى ، والزهرى (ت١٢٤هـ) وعاصم بن قتادة (١٢٩هـ)[1] ، ثم جاء بعد هؤلاء طبقة أخرى عاشت فى العصر العباسى أشهرهم موسى بن عقبة (ت١٤١هـ) ومعمر بن راشد (ت١٥٢هـ) وابن إسحاق (ت١٥٣هـ) صاحب سيرة ابن هشام والواقدى صاحب المغازى المعروفة وابن سعد صاحب الطبقات الكبرى . إلى أن ظهر ابن جرير الطبرى (ت٣١٠هـ) ، بموسوعته الكبرى الموسومة بتاريخ الرسل والملوك ، فكان إماماً للمؤرخين الذين تجاوزوا مرحلة الوقوف عند السيرة ، وقدم لنا تاريخاً كاملاً ... وهكذا قدّم المسلمون أروع استجابة للتحدى الثقافى الذى واجهوه ، وكما انتصروا بالقرآن فى معركة السيف – فقد انتصروا به فى مرحلة الثقافة – وقدموا للبشرية بناءً ثقافياً قوياً وكاملاً .

---

(١) انظر : أحمد أمين (بتصرف) ضحى الإسلام الجزء الثانى ص ٣١٩ وما بعدها .

الفصل السادس

العصر القرآنى

حضارة كاملة جديدة

إن نزول القرآن ليس مجرد حدث دينى وإنما هو منعطف جديد فى التاريخ البشرى ، إنه (حضارة) جديدة تسعى إلى قيادة البشرية نحو حقيقتها الإنسانية ، وطريقها الحضارى الصحيح .

إن شعار (لا إله إلا الله) يعنى إسقاط كل معبودات الجاهلية من أوضاع وطواغيت وأنظمة طاغية وأوثان من أى نوع .

إننا نرى فى هذه الحضارة إنساناً جديداً حتى الذى مازال يحمل من الناحية الرسمية والجسدية صفة العبودية ... نرى هذا الإنسان يتصرف ويمارس وجوده ، ويعبر عن ذاته ، ويؤمن فى أعماقه بما آمن به بلال بن رباح وهو يهتف فى صحراء مكة اللاهبة فى وجه سادته ومعذبيه :

« أحدٌ ، أَحَدٌ » ... فالعبد بلال – من الناحية الرسمية – كان الإسلام قد حرره بشعار « لا إله إلا الله » من الناحية الحقيقة العقلية والشعورية .

– إنَّ قيم إنسانية الإنسان ، وحريته إلا لله ، وكرامته ، ومساواته ، هى قيم أساسية جاء بها القرآن الذى يخاطب البشرية كلها بقوله : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

– ويتبع هذه القيمة الإنسانية قيمة العزة التى يجب أن تكون خصيصة

من خصائص الإنسان المسلم ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾[1] ﴿ **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** ﴾ وليست هذه العزة إلا الإحساس بالكرامة والتمسك بالحق الإنسانى فى الحياة .

– وفى مضمار القيم الحضارية التى غرسها القرآن إلى جانب الكرامة والعزة – قيمة « المسؤولية » فليست الحرية فى الإسلام حقاً مطلقاً بدون قيود ، بل هى حق موجه لخدمة الفرد والمجتمع ، ومن هنا أعفى القرآن المضطر من المسؤولية .

– قال تعالى : ﴿ **فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم** ﴾[2] ثم ربط القرآن – بعد ذلك – الفرد بمسؤوليته فقال : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[3] وقال : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾[4] .. ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾[5] .

– وقد كان القرآن سباقاً إلى المنهج الصحيح فى بناء المجتمعات وفى تحقيق رقيها الحضارى ، ومن هنا فرق القرآن – بوضوح – بين الأمراض والأعراض ، وبين الداخل والخارج ، وبين روح الحضارة المعنوية ومنتوجاتها المادية : ﴿ **إن الله لايغيّر مابقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ ! !

وبالتالى فقد ركز القرآن على القيم الإيمانية الداخلية وحارب مسالك الانهيار النفسى والأخلاق للأمة ، ذلك لأن تأكيد الروح لايتحقق إلا بتنظيم علاقة الإنسان بالعالم الخارجى من خلال النور المنبعث من العالم الموجود فى أعماق نفسه

---

(١) سورة المنافقون : الآية ٨ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٣) سورة المدثر : الآية ٣ .

(٤) سورة النجم : الآية ٣٩ – ٤٠ .

(٥) سورة الشمس : الآية ٧ ، ٨ .

﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ .

– ولقد تجاوز القرآن ذلك التعارض الذى وقعت فيه النصرانية بين الذات والموضوع ، بين فهم العالم الحقيقى كحقيقة خارجية رياضية وبين البيولوجية الكائنة فى النفس ، فكان أن استجاب الإسلام لعالم المادة ولم يرفضه ، وإنما سيطر عليه وجعله فى خدمة الروح الداخلية[1] . ولايوجد احترام أكثر من الاحترام الذى أعطاه القرآن للسنن الكونية على أساس أن التفاعل معها واستيعابها هما الطريق للانسجام بين العالم والنفس ، أو بين العالم الخارجى والذات .

وبديهى أن من السنن ما هو (حتمى) يجرى على الإنسان شاء أم أبى ، ومنها ما هو اختيارى يستطيع الإنسان الاستفادة منها بتسخيرها لما يريد فينتفع منها بقدر ما أتيح له من قدرة على التعلم والكشف عن قوانين السنن الكونية ، ومنها ما لا يستفيد منه أو يتضرر به لغفلته وجهله وتعطيله لأجهزة العلم والمعرفة حيناً من الدهر مثل عدم دراسته القوانين التى وفقها يستخدم النور أو الجاذبية أو قوة الدفع المتحرك أو علم (سير الأمم) أو علم تغيير المجتمعات والأفراد أو علم قوانين الهندسة[2] .

فمعرفة هذه القوانين وحدودها والتفاعل معها يرفع أية أمة إلى وسائل القوة والفاعلية ، بينما تنخفض الأمة عندما تتعطل ملكتها فى فقه هذه القوانين وتجنح إلى تعطيلها .

والقرآن يوجه المؤمنين بقوة إلى هذه الحقيقة الحضارية ، ويقول لهم : ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[3] ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[4] ﴿ وما كان ربك

---

(١) انظر : محمد إقبال : تجديد الفكر الدينى ص ١٦ نشر القاهرة .

(٢) إبراهيم بن على الوزير : على مشارف القرن الخامس عشر ص ١٤ طبع دار الشروق – بيروت .

(٣) سورة القمر : الآية ٤٩ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٣٨ .

ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[1] ..

وكمال الأمم فى « الذروة » هو أن تجمع فى (فقهها) وتطبيقاتها بين السنن الكونية الحتمية وبين السنن التشريعية الهادية الموضوعة أمام الاختبار الحرّ للإنسان ، وبمقدار التطبيق تحرز النتائج فى كل من هذه وتلك سلباً وإيجاباً قوةً وضعفاً وكمالاً ونقصاً[2] .

لقد مرت التجربة التاريخية الإسلامية بمنعطفات كثيرة ، لكنها مع ذلك لم تفد منها الفائدة المرجوة وبقيت بعيدة عن فقه السنن الإلهية الكونية والاجتماعية . فمنعطف الفتنة بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، ومنعطف هزيمة التتار ، ومنعطف سقوط الأندلس بتأثير العصبية القومية والترف والتمزق السياسى ومنعطف هزيمة الصليبيين ، ومراحل الاستقلال السياسى التى تظهر وكأنها لاجدوى منها لافتقادها للحصانة الفكرية ولحرية الإنسان المسلم ووعيه بحقوقه وواجباته ... فكل هذه المنعطفات تؤكد أن تفاعل الأمة المسلمة مع السنن الكونية والاجتماعية التى غرسها القرآن تفاعل ضعيف **﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ﴾**[3] **﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون ﴾**[4] ... ولهذا تبدو الأمة المسلمة فى كل منعطف ، وكأنها فى حاجة إلى أن تبدأ من جديد .

وكما اهتم القرآن فى ترسيخه للقيم الحضارية الأساسية بقيمة التفاعل مع القيم الإلهية الكونية والاجتماعية والتشريعية – فكذلك اهتم بقيم حضارية لها أهميتها فى الحركة التاريخية الصاعدة .

ومن هذه القيم : قيمة العدل ، ولايتحقق العدل إلا بالاحتكام إلى تشريع

---

(١) سورة هود : الآية ١١٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦ .
(٣) سورة يونس : الآية ١٠١ .
(٤) سورة الأنفال : الآية ٢٢ .

الله[1] ، لأنه وحده الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، أما الاحتكام إلى البشر المعرضين لعوامل الظلم ولقصور الرؤية فهو الظلم بعينه ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾[2] ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ﴿ **الظالمون** ﴾ ﴿ **الفاسقون** ﴾[3] ... بل إن العدل هو الشريعة للكون كله وأساس نظامه :

﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان** ﴾[4] والعدل أساس المجتمع : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾[5] ﴿ **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين** ﴾[6] .

– ومن القيم الحضارية الضرورية لبناء المجتمع قيمة « الشورى » حتى لايطغى الحاكم فيعطل دولاب الحياة ، وحتى يتحرك المجتمع بعقل جماعى ، لابفردية مستبدة عاجزة . وإن ضياع قيمة الشورى يعنى نقض عروة الحكم ، لأنه يعنى اختراق الكتاب والسلطان ، فقد أسس الكتابُ الحكم على الشورى ، لكن السلطان ألغى ماجاء به الكتاب وأقامها كسروية وقيصرية . وليس ثمة شك فى أن فساد نظام الحكم الذى هو القاعدة المسيطرة فى العالم الإسلامى من العوامل الهامة فى تدهور هذه المجتمعات ، بل هو من عوامل تدهور كل مجتمعات التاريخ . وإن أبرز نتائج فساد الحكم (انعدام الأمن) الذى هو قيمة أساسية فى بناء الحضارات : ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾[7] .

---

(١) انظر محمد شديد : قيم الحياة فى القرآن الكريم ص ١٠٧ نشر دار الشعب – القاهرة .
(٢) سورة آل عمران : ٥٠
(٣) سورة المائدة : ٤٤و٤٥و٤٧
(٤) سورة الرحمن : ٧
(٥) سورة الحديد : ٢٥
(٦) سورة الأنبياء : ١١
(٧) سورة النحل : ١١٢

– ومن القيم الحضارية الأساسية لإقامة مجتمع سليم (الوسطية) فى كل شىء ، والبعد عن المبالغة إيجاباً وسلباً فى كل شىء ، وكما أن التقتير والبخل يدفعان إلى الصراع والحقد بين طبقات المجتمع فكذلك يؤدى الترف والإسراف إلى أوخم العواقب . بل إن الترف من أقوى الأسباب المدمرة للحضارات .. ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾[1] .. ﴿ **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا إلى ماأترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ، قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين** ﴾[2] ...

إنها قيمٌ حضارية كثيرة تلك التى دلنا عليها القرآن ، ولاسبيل لحصرها فى بحث وجيز كهذا ، وحسبنا أن نعلم أن كل القيم الحضارية قد غطاها القرآن ، وقد سبر القرآن أغوار الماضى على نحو تركيبى عجيب ، مقدماً لنا نماذج جديدة من المعطيات والوقائع التاريخية ، فكأننا نرى مساحة الماضى ، وقائع وعبراً ، ممتدة أمامنا بدءاً من قصة آدم ، وحتى محمد ﷺ .

بل إن بعض الآيات القرآنية لتتجاوز الماضى والحاضر لكى تمد رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيد فى تنبؤات تاريخية لايحيط بها إلا علم الله المطلق ، المشبع بالصدق الكامل والضمانة النهائية (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ..

–وفضلاً عن السنن الكونية والتاريخية التى يومىء إليها القرآن عبر مساحة العروض العميقة الفسيحة التى قدمها ، فإنه يعالج من خلال هذه العروض المسألة الزمنية التى تخبطت فيها الآراء الحديثة بين القائلين بالخلق المباشر المستقل والتطور الطبيعى . فالقرآن يبين لنا عبْر استعمالاته – تلك الروح الإلهية المتجلية فى أصل

(١) سورة الإسراء : ١٦ (٢) سورة الأنبياء : ١١ – ١٥

الإبداع ، والمستقلة والمباشرة ، والتى تسخر قوة الطبيعة المادية المنظورة وقوة الروح غير المنظورة ، ويبدو لنا الإنسان (خليفة الله فى الأرض) صاحب دور أساسى فى صناعة التاريخ وفى تحولات الحضارة ، إنه فى هذا المجال حرٌّ مختار واع لاتقهره حتمية مادية أو اقتصادية ، وحسبه أن يلتحم بالسنن الكونية عبر حوار دائم وأبدى مع كتلة الطبيعة والعالم[1] .

وأخيراً فإنه من خلال هذا العرض السريع نزلنا مطمئنين عندما نقول :

– إن القرآن ليس دستور دين وحسب ، وإنما هو كذلك منهج (حضارة إنسانية) شاملة .

الطريق إلى تجديد صلتنا الثقافية والحضارية بالقرآن :

لاشك أن الثقافة العامة والمناهج الحضارية المطروحة فى عالم اليوم ، ولا سيما فى العالم الإسلامى ، تشكل عقبة سيئة فى طريق تحقيق (الذات المسلمة) و (الحضارة الإسلامية) المنشودة ، ولكى يكون المسلم تعبيراً حقيقياً عن القرآن أو كما يقال (قرآناً متحركاً) ، ولكى يواجه عالم اليوم المشحون بالقيم الثقافية والحضارية الفاسدة فإن عليه أن يؤمن برسالته العالمية التى توجب عليه (تأويل الكون تأويلاً روحياً ، وتحرير روحه الفردية[2] ، والوصول من قرآنه إلى مبادىء عالمية توجه تطور المجتمع الإنسانى على أساس روحى ...) .

فإن إيمان المسلم بنفسه وثقته فى الحقيقة الناصعة التى تترجمها الآية القرآنية القائلة :

(١) د. عماد الدين خليل : التفسير الإسلامى للتاريخ .
(٢) محمد أسد : الإسلام فى مفترق الطرق .

﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ وبالتالى : ينطلق من القرآن نفسه ، كدستور لثقافته ومفاهيمه الحضارية بحيث لايعمد إلى القيام بإسقاط خلفيات ثقافية أو حضارية على الإسلام ... إن هذه الشروط إنما هى خطوات أولية على طريق تجديد صلته الثقافية والحضارية بالقرآن .

ويجب أن يعى المسلم أن أسلافه قد واجهوا بالقرآن .. حضارات كانت ذات بريق وزخرف وتفوق مادى كشأنه مع الحضارة الأوروبية اليوم ، لكنهم ما وقفوا لحظةً واحدة موقفاً دنيوياً انهزامياً أمام هذه الحضارة ، بل أخضعوها لقرآنهم ، وكانوا دائماً يتعاملون مع فارس والروم على أنهم الأعلون المبتعثون لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . ومن دروس التاريخ التى وعيناها من مواقف أسلافنا الحضارية أنهم حاربوا فى المجال الفكرى والحضارى بعزيمة لاتقل عن حربهم فى المجال العسكرى ، فعلى المسلمين الآن – وقد رأوا ذلك بعيونهم – أن لايجعلوا للاستقلال السياسى والعسكرى قيمة أكبر من حجمه ، بل الأهم من ذلك الاستقلال الفكرى والأخلاق والحضارى . ومن هنا يلزم (توجيه الأفكار) فى هذا السبيل ، بدل استنزافها فى التلفيقات والمحاكاة .

وعلى المسلمين أن يعيدوا تقويم موقفهم من السنن الكونية والتاريخية ، فإن هذه التواكلية الصوفية غريبة عن روح الإسلام ، إنها فوضى فى التصور والاعتقاد ، كما أن عليهم أن يعيدوا تقويم موقفهم من (الجمال) ومن ارتباطه بالخير والحق ارتباطاً لاينفك عنهما . فإن المسلمين – للأسف – قد أهملوا (الجمال) فى فكرهم وحياتهم ، بل حاربوه فى بعض الأحيان ، وبالتالى تخلفوا فى فهم عناصر الإبداع والانسجام فى الكون والمجتمع وفقدوا حاسة الاختراع ، بل إننى هنا لأدعو إلى إنشاء علمين فى معاهد الإسلام وكلياته :

أحدهما (علم السنن الكونية) ، وثانيها (علم الجمال والنظام) ، فإننا إذا فعلنا ذلك نكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح نحو ثقافة وحضارة تنتميان حقاً إلى القرآن ، وتعيدان للوجود ألَق العصر القرآنى .

الفصل السابع

الشريعة الإسلامية فى مرحلة الغزو الفكرى
وضرورة عودة الاجتهاد

توقف الاجتهاد ونكبة القوانين الوضعية :

حكمت الأمة الإسلامية العالم – شرقاً وغرباً بالشريعة الإسلامية – فى بيئات متناقضة فى التضاريس والطقس والتراث الحضارى .. على امتداد اثنى عشر قرناً من الزمان ..

وخلال هذه القرون لم يحس المسلمون بأنهم فى حاجة إلى مدد قانونى من خارج شريعتهم ، بل كان شعورهم – على العكس من ذلك تماماً – فقد كانوا يحسّون بأنهم سادة العالم .. عقيدة وشريعة ، حتى وإن هزموا فى بعض المعارك ، أو خرجوا من بعض البقاع ، واستعاضوا ببقاع أخرى ..

⁂

وخلال القرون التى ظهر فيها الإسلام وانتشر ، أى خلال القرون السابع والثامن والتاسع للميلاد – كان القانون الرومانى قد سقط تقريباً ، ونسيه الناس منذ ظهر الامبراطور جوستينيان فى القرن السادس للميلاد .

ولم يقدر لهذا القانون أن يظهر مرة أخرى إلا على يد تلميذ من تلامذة الشريعة الإسلامية ، وهو البابا (جربرت الفرنسى) المعروف باسم « سلفستر » (١٠٢٤م) الثانى الذى تتلمذ فى القرن الحادى عشر للميلاد هو وبعض أتباعه – على المسلمين فى الأندلس ، ثم عاد إلى بلاده فبدأ يطور القانون الرومانى ، ويطعمه

ببعض التشريعات الإسلامية التى نقلها معه . لكن البابا سلفستر ، أو غيره ، ما كان يقدر على إعلان هذا التأثير الإسلامى التشريعى ، أمام كنيسة العصور الوسطى ، وبالتالى فقد اعتبرت الكنيسة تطوير سلفستر للقانون الرومانى تطويراً ذاتياً دون أن تدرك ، خلال تلك الأيام – أصل المؤثرات التى طعم بها سلفستر القانون الرومانى ، وبعثه – بها – من رقدته التى كان يمكن أن تستمر إلى الأبد .

فلما انتصر المسلمون فى الحروب الصليبية – ركنوا إلى غرور التفوق ، حتى فوجىء المسلمون العظام ، أصحاب المجد المؤثل ، فى شبه القارة الهندية ، بالإنجليز يهزون الأرض من تحتهم بمدافع جديدة لاقبل لهم بها ، ويحملون مع مدافعهم قوانين يريدون بها زحزحة الشريعة عن مكانها .

ولم تكد تستقر أقدام انجلترا فى الهند حتى قامت سنة ١٧٩١م بإلغاء الشريعة الإسلامية ، وفرضت على المسلمين الهنود قانونها الوضعى ، حاصرة الشريعة الإسلامية فى ذلك الركن الضيق المسمى بالأحوال الشخصية » .. وكانت هذه هى بداية النكبة للعالم الإسلامى كله ! !

وفى الجناح الإسلامى الآخر ، فى مصر .. كانت الحملة الفرنسية التى يقودها نابليون بونابرت قد وصلت سنة ١٧٩٨م ، ولم تخرج سنة ١٨٠١م – أى بعد ثلاث سنوات – إلا بعد أن تركت وراء مدافعها ومطبعتها وعلماء آثارها ، ومفكريها – بذور غزو فكرى رهيب ، ظل ينمو ويترعرع ، حتى أتى أكله على يد ذلك العميل الفرنسى الخائن « محمد على باشا » الذى اتجهت أسرته كلها – باستثناء الملك فؤاد رحمه الله . إلى أن تكون مصر « قطعة من أوروبا » ولم يكن لهم من هم إلا الصراع مع المسلمين فى شبة الجزيرة العربية ، ومع الحركة التجديدية الوهابية ، أمَّا مع الإنجليز والفرنسيين ، فهم عملاء عقلاً وقلباً .

وعلى يد هذه الأسرة فرض القانون الفرنسى على مصر سنة ١٨٨٣ ، وأنشئت المحاكم الأهلية . فلما تبين أن هذا القانون الفرنسى غير صالح – رقّع بالقانون البلجيكى الصادر سنة ١٨٦٧ ، ثم رقّع القانون بالقانون الإيطالى الصادر سنة ١٨٩٩ ، ثم انضم القانون الإنجليزى – ببعض صوره المعدلة المفروضة على مسلمى الهند والسودان – ليصبح الثوب القانونى لمصر – ثوباً مرقّعاً متسوّلاً من أركان أوروبا الأربعة .

ولقد بلغت الإهانة من الاستعمار البريطانى لمصر ، أن فرض عليها فى معاهدة دولية هى معاهدة (مونترو) أن تتبع التشريع الأوروبى ! !

ثم انتقل الاستعمار الغربى إلى القلعة الكبرى الباقية للعالم الإسلامى ، وهى دولة الخلافة العثمانية ...

ففى مارس سنة ١٩٢٤ أسقط كمال أتاتورك وهو من يهود الدونمة – الخلافة الإسلامية ، وأعلن أتاتورك ما هو معروف من إزالته لكل ما هو إسلامى مضموناً وشكلاً ، وكان يفرض على الناس التخلى عن عقيدة الإسلام ، بعد الشريعة .

وعلى المستوى الفكرى خرج أحد المنتسبين لأحد الأحزاب ذات الولاء والارتباط بالمستعمرين الإنجليز لمصر ، ويدعى « الشيخ على عبد الرازق » – وكان مع بقية أسرته من حزب الأحرار الدستوريين الذى خلف حزب الأمة فى الولاء للإنجليز – خرج على الناس بكتاب أسماه « الإسلام وأصول الحكم » .

وهو يهدف إلى أمرين :

١ – القضاء على الخلافة – فكرياً – بعد أن سقطت عملياً ، حتى لايحاول الناس المناداة بإعادتها وينصرفوا عنها إلى الأبد ، فتستقر قواعد الإنجليز فى مصر .

٢ – إسقاط الشريعة من الإسلام ، وتحويل الإسلام إلى دين لاهوتى ينزوى فى كنيسة أو معبد كما هو شأن النصرانية ، دين المستعمر .

وقد أنشئت خلال ذلك كليات للحقوق كانت تنظر إلى الشريعة ، وكأنها إطار إضافى للقانون ، أو كأنها قواعد وعظية ، ليس لديها القدرة على الوفاء بكل مطالب العصر ، المتعدّد المشكلات والأقضية .

وقد تورط أساتذة مسلمون كثيرون ، فوهبوا لهذه القوانين حياتهم ، دون أن يفكروا فى بحث مالديهم من تراث فقهى ، أو من أصول تشريعية ... وفتح باب الاجتهاد .

وتردت الأمة الإسلامية فى هاوية سحيقة من قيعان القوانين الوضعية ، وكادت شخصيتها الحضارية ، التى يعتبر الجانب التشريعى من أبرز مقوماتها ودعائمها – أن تذوب ، أليس القانونيون أنفسهم هم الذين يقولون : إذا أردت أن تعرف شخصية بلد فاسأل عن قانونها ... ! !

ظاهرة خطيرة فى مرحلة الصراع الأخيرة :

ومع بداية عودة الأمة الإسلامية إلى الشريعة ، بعد أن توقف نمو الأمة الحضارى ، وبعد أن ذاقت فى ظل القوانين الوضعية أكبر الويلات ، فأنهارت سياسياً وفكرياً واجتماعياً ، واقتصادياً ، وأخلاقياً ، وأصبحت تعتمد فى فكرها العقدى والتشريعى على مجرد التسول « الأيديولوجى » فيما يسمى بالنظريات الاشتراكية والديمقراطية .

وهى أيديولوجيات لاتنسجم ولاتتواكب مع التراث الحضارى الإسلامى ولا النفسية الشرقية ... ولا الذات المسلمة فى ظل هذه القوانين الوضعية ، بحيث أصبح الدم الإسلامى كما قال بعضهم – أرخص الدماء فى الأرض[1] ..

---

(١) عنوان مقال صدر بمجلة الدعوة المصرية .

أجل ... مع بداية عودة الأمة من محنتها القانونية التى استمرت قرنين من الزمان ... كان طبيعياً أن يقف فى وجه هذه العودة أصحاب العقائد المخالفة للإسلام ، من الشيوعيين والاشتراكيين والنصارى واليهود وغيرهم من المسحوقين فكريا شرقاً أو غرباً ..

وكان هذا شيئاً طبيعيًّا ومتوقعاً .. فهذه سنة الله فى التدافع والصراع ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾[1] .

لكن الشىء الخطير ، أن ركناً من داخل حصن الفكر الإسلامى ، قد أصابه التصدع ، ولم يكن بناؤه الذاتى من القوة بحيث يخرج من مرحلة الصراع ، بكل ذاتيته وأصالته وانتمائه ، بل خرج منه على صورة مزيج غريب يخلط بين الإسلام والمذاهب السياسية ، والاتجاهات العقائدية والقانونية المعاصرة ، ويريد أن ينسج من هذا الخليط منهجاً تشريعاً - وفكرياً - جديداً .

وكان السيد « أمير على » صاحب كتاب : « روح الإسلام » الزعيم الروحى لهذه المدرسة .

والملاحظ على هذه المدرسة عدة خصائص منها :

١ - أنها مدرسة لم تدرس الإسلام دراسة واعية شاملة ، بل تقوم ثقافتها على خليط من تصورات إسلامية ، وثقافات أجنبية ، يبدو أن رصيدها فى عقولهم أكبر من رصيدهم من الفقه الإسلامى .

٢ - وبعض هؤلاء قانونيون أصلاً .. لكن ظروفاً ما جعلتهم يحتكون ببعض الحركات الإسلامية ، فخرجوا من تخصصاتهم ومن تعرفهم على الإسلام ، بتصور جديد أطلق عليه بعضهم اسم : « القاديانية الجديدة » كما أطلق عليه آخرون اسم : « المعتزلة الجدد » .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

٣ – ومن خصائص هؤلاء مرونة كبيرة فى قبول المناصب وإصدار الفتاوى حتى ولو كانت على حساب الإسلام .

٤ – ولهؤلاء صلات قوية ببعض زعماء التقريب فى العالم الإسلامى ولهم بهم صلات طيبة ، بل كثيراً مايجمع الودّ بينهم وبين دعاة اليسارية والاشتراكية المعتدلة .. ! !

٥ – ولايوجد واحد من هؤلاء يحفظ القرآن الكريم ، مع أنهم يتصدون للفتوى ! ! أما إلمامهم بالسنة الشريفة فهو جدّ هزيل .

شبهاتهم فى وجه تطبيق الشريعة :

أما مقولاتهم التى يعتمدون عليها ويهدفون بسببها إلى طرح الشريعة ، أو على الأقل صرف النظر عن تطبيقها ، فهى :

١ – القول بأن بناء العقيدة فى المجتمع الإسلامى أهم من بناء الشريعة ، وقولهم – كما تعلم – حق يراد به باطل ... فإقامة الشريعة سبيل لإقامة العقيدة ، إذ الشريعة حارس للعقيدة .

كما أن تطبيق الشريعة سيحول دون صرف الناس عن التصورات الخاطئة فكراً وسلوكاً – وهى التصورات التى تروج لها أدوات الإعلام المنحرفة فى غيبة الحكم بالشريعة .

٢ – ويصرح هؤلاء فى وجه المطالبين بتطبيق الشريعة – بأنهم يحصرون تطبيق الشريعة فى الحدود ... مع أنه لايوجد مسلم من المطالبين بتطبيق الشريعة ، إلا وقد بُحَّ صوته ، من أجل إصلاح الإذاعة والتلفاز والصحف .. فلا فرق بين محاربة الزنا .. ومحاربة الفنون والمجلاَّت التى تزيِّن هذا الزنا .. وهذا من ذاك .. والحرب على هذا تستلزم حرباً على ذاك ، ثم إن أى مسلم يعرف أن للحدود دوراً أساسياً فى تنفيذ كل مطالب الشريعة الأخرى ، فهى سبب ونتيجة فى الوقت نفسه .

ومعروف لدى كل مسلم أن تطبيق الشريعة لابد له من ثلاثة مقومات :

أ – القانون – أى الشريعة ... ومدى وفائها بالتزامات الحياة .

ب – الأفراد الذين ينفذون الشريعة ، ومدى إيمانهم بها .

جـ – الشعب الذى تطبق عليه الشريعة ، وضرورة تربيته تربية صالحة .

٣ – ومن شبهات هؤلاء كذلك قول بعضهم : إن تطبيق الشريعة عمل مثالى .. وأن هذه الشريعة لم تطبق إلا نادراً ، مع أنهم يعلمون، أنها لم تزحزح إلا خلال القرنين الأخيرين فقط . وكانت قبل ذلك مطبقة فى كثير من جوانب اجتماعية أو اقتصادية أو شخصية ، حتى وإن اختل الجانب السياسى فيها .

وبالطبع فإن على هؤلاء – باعتبارهم مسلمين – أن يذكروا أن القول بمثالية الشريعة بمعنى عدم القدرة على تطبيقها يتعارض مع « عدل الله » ويتعارض مع ما جاء فى القرآن من مثل قوله تعالى : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ وقوله : ﴿ **لايكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ .

٤ – ويرى هؤلاء كذلك إمكانية تشطير الإسلام ، فالعقيدة تظل إسلامية ، أما الجانب الاجتماعى الاقتصادى ، فيمكن أن تؤخذ فيه المذاهب الاجتماعية المعاصرة ، وأما على المستوى السياسى فيمكن أيضاً اللجوء إلى « اليمين الإسلامى » أو « اليسار الإسلامى » ! !

٥ – ويوسع هؤلاء من دائرة العقل بحيث لايتركون للنقل مجالاً ، وسبيلهم إلى ذلك لوك كلمات « التطور » و« العصرية » دون ضابط أو حدود لهذا العقل البشرى القاصر ، بل يذهب بعضهم إلى أنه إذا تعارض العقل مع النقل أخذنا بالعقل ، دون أن يضعوا لعقولهم أحجامها المناسبة ، ودون أن يقولوا لنا أى نصٍّ نقلى يجب أن نتركه إيثاراً للعقل .. ! !

وأى عقل هذا ياترى الذى يجب أن نترك النصّ من أجله ؟

– أهو عقل العربى البدوى الذى لم يصدق أن محمداً عليه الصلاة والسلام أسرى به فى ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ... ورماه – لهذا – بالجنون ، وبعضهم – كما قيل – كاد يسلم لكنه رجع – لهذا السبب – عن الإسلام .. ! !

– أم هو – ياترى – عقل « المسلم المعاصر » الذى يستخدم الطائرة و« الفيديو » ، و« التليفون » والسيارة ، ويتصور المركبة الفضائية ... ؟ ! !

– .. وهل كنا نُلغي – ياتُرى – سورة « الإسراء » حتى نكتشف « الطائرة » ؟

– أم نلغى سورة « الجن » حتى نرى « الجن » ! !

– أم نرفض حديث الذبابة » حتى يثبته العالم الذى أسلم بسببه ! !

– أم نرفض تحريم الخنزير أربعة عشر قرناً ... حتى يكتشف لنا الطب الحديث « الدودة الشريطية » ، ثم يكتشف لنا – أخيراً – مرض « التريسنيوز » الذى لايظهر إلا فى آكل لحم الخنزير ، والذى لايمكن علاجه بالمضادات الحيوية[1] .

٥ – ويرفض هؤلاء ماسوى الحديث المتواتر – وهو قليل جداً – حتى يأخذ السيد « العقل » الحيّز الذى كانت تحتله أحاديث الآحاد ! !
٦ – ويعبد هؤلاء شيئاً يسمونه « المصلحة » ويريدون – سامحهم الله – تفضيلها – أى المصلحة – على النص .. وكأن تلك العقول التى يحملونها ولا يدركون كنهها ، بل لايدركون كيف يعقلون بها .. ولاكيف أنها لا تعقل أحياناً .. كأن عقولهم تلك – تعرف المصلحة أكثر من خالقهم وخالق

---

(١) انظر الصفحة الأخيرة من مجلة الأمان البيروتية العدد الأول ربيع أول سنة ١٣٩٩هـ .

المصلحة – سبحانه وتعالى عما يشركون – ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ .

-وهم يملكون مهارة كبيرة – سامحهم الله – فى بتر النصوص من الماوردى ، وابن حزم ، وابن قيم الجوزية ... ووضعها فى غير موضعها ، ويتجاهلون أن ما يسمى « بالعقل » أو مايسمى « بالمصلحة » إنما يأتى فى الدرجة التى لايكون فيها أى نص من النصوص .. ! !

٧ – ويقيد هؤلاء القرآن والسنة بقيود لفقوها بأهوائهم وصنعوها من نسيج أوهامهم ، فأما القرآن الكريم فهم يرون أنه مقيد « بالسبب » .. فليست القاعدة عندهم « العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب » .. لا .. بل القاعدة عندهم « الدليل يرتبط بالحادثة ولاينفك عنها » وإن القاعدة تنتهى على عتبة سببها .

أما السنَّة .. فهى مقيدة بحديث « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وبالتالى فهم لايريدون هدْياً نبوياً مقيداً ، لأنهم أعلم – من الرسول عليه الصلاة والسلام – بأمور دنياهم .

٨ – ويجرى هؤلاء وراء كل فكرة يرون فيها « تطوراً » حتى ولو شذّوا عن إجماع الأمة وخرجوا عن نصوص دينها .

– فهم يبيحون الغناء والموسيقى دون قيود ! !

– وهم يفرضون على الإسلام المنحى الاشتراكى الجماعى ، ويأخذون عن ابن حزم بعض آرائه فى هذا المقام ، لكنهم يرفضون ابن حزم فى آرائه الاجتهادية الأخرى ، وفى أصول الفقه عنده .

– وهم يميلون إلى إباحة « الربا » فى أكثر صوره الجماعية .

– وهم يقفون ضد تطبيق حدِّ الردّة .

– وهم يعطون الأقليات أكثر من حقوقها ولو على حساب الأكثرية المسلمة المسكينة .

– وهم يدورون فى فلك البحث عن المشكلات التى يظنون أنها يجب أن تشغلنا قبل أن نفكر فى تطبيق الشريعة . مثل مشكلة « الاختلاط بين المرأة والرجل » و« الرقص » و« الفن التشكيلى » و« النحت » . وهلم جراً ... من الآراء التى يضعونها فى طريق تطبيق الشريعة كما توضع الأحجار فى طريق السائرين ! !

٩ – وهم يريدون إلغاء الفقه ، مع أن أحداً لم يلزمهم أن ينهجوا منهجاً فقهياً معيناً ... المهم أن تتوافر فيهم شروط الاجتهاد .. ! !

وليس من عملنا هنا تتبع كل آراء هذه المدرسة « الترقيعية » أو « التلفيقية » التى جعلت رسالتها إخضاع الإسلام للأوضاع – وليس إخضاع الأوضاع للإسلام ، والعمل على تقديم صياغة إسلامية كاملة للحياة .

أجل : إنه ليس من عملنا هنا تتبع كل آراء هذه الطائفة بل إننا قد ترددنا فى الإشارة إليها .. لولا أننا أدركنا خطورتها لسببين :

أولهما : أن أعداء تطبيق الشريعة ، كالماركسيين والعلمانيين ، يستثمرون آراء هذه الطائفة ، ويصدرون آراءها لمقاومة تطبيق الشريعة ، ويضفون هالة على هذه الطائفة المغرورة المنحرفة ، بهدف جعلها وكأنها الممثل الوحيد للفكر الإسلامى الحديث .

ثانيهما : أن هذه الطائفة يتظاهر بعض أعضائها بأنهم من العاملين المخلصين للإسلام ، وأنهم ليسوا أكثر من مفكرين مجتهدين من الدائرة الإسلامية مع أننا – من معرفتنا الشخصية – ندرك حقيقة انحراف كثير من هؤلاء عن (الالتزام الإسلامى) – ومع ذلك فتأثيرهم خطير يوجب التنبه إليه نظراً لهذه الشبهة التى يخدعون بها الشباب والناشئين ، ونظراً لأنهم فى الحقيقة يمثلون خطراً داخلياً فى العمل الإسلامى ، أو حسب تعبير بعضهم : حصوننا مهددة من داخلها ! !

ويبقى أن الإسلام (عقيدة وشريعة) ، وأن العقيدة بلا شريعة هى من باب (توحيد) أخناتون ، أو غيره من أصحاب عقائد التوحيد .. أما الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فهو كل لايتجزأ .. إنه (عقيدة وشريعة) معاً .

الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية :

يضم الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية كل تطبيق قام به مسلمون ثقات ذوو مستوى دينى رفيع ، على مستوى الفكر والسلوك ، بدءاً من الخلفاء الراشدين والصحابة رضى الله عنهم ، وإلى أعلام هذا العصر ، كالإمام محمد بن عبد الوهاب ، والإمام حسن البنا ، والعلامة الشيخ محمد أبو زهرة ، رحمهم الله جميعاً .

وإذا أجمع فقهاء جيل على أمر أصبح ملزماً - بكيفيته - أما إذا تباينت فيه آراء الثقات العدول أهل الاجتهاد ، فيصير رأى كل منهم صحيحاً ، وجائز العمل به ، وذلك كالآراء الفرعية التى اختلف فيها الأئمة مثل أحمد بن حنبل ومالك والشافعى وأبو حنيفة ، وداود الظاهرى ، والليث بن سعد ، والأوزاعى ، وغيرهم .

وليس الاجتهاد كما يتوهم البعض - حقاً لكل جاهل أو نصف متعلم ، بل لا بدّ أن تتوافر شروط الاجتهاد فى كل من يدخل هذا الباب ، مثلما لا تسمح كل الأمم لغير القانونيين بالاجتهاد فى القانون ، ولغير الأطباء بالاجتهاد فى علاج المرضى وهكذا .

وقد استطاعت الشريعة الإسلامية - القائمة على مصدريها الثابتين ، والقابلة - فى إطارهما - للاجتهاد والمرونة - سدّ كل احتياجات البشر ، عبر دروب من

الاجتهاد المنضبط المسماة فى تاريخ التشريع بأصول الفقه ، كالقياس ، وسدّ الذرائع ، والمصلحة ، والاستحسان ، واستصحاب الأصل ....

وقد استطاعت هذه الشريعة أن تفى بكل احتياجات الأمم التى فتحها المسلمون وكانت – مع ذلك كله – شريعة رحمة وعدل ، ومساواة قانونية ودستورية ، يقول المحقق القانونى الفرنسى « ليفى أولمان » :

« إن الشريعة الإسلامية فى المعاملات مصدر حىّ للقانون ، ومناط للحق فى أطواره المختلفة » .

ويقول المؤرخ غوستاف لوبون :

« إن معايير النجاح التشريعى التى نقصد بها وسائل التقدم والتأخير فى المرتبة الاجتماعية كانت واحدة فى كل مكان يقع داخل حدود ديار الإسلام » .

ويقول : « لم تر الأرض فاتحين أبرَّ وأرحم من المسلمين » .

أما الدكتور « إيزيكو سباتو » فيقرر « أن الشريعة الإسلامية تفوق الشرائع الغربية والأوروبية التى هى شتات مقتبس من مختلف المصادر ، كما يقرر « أن الإسلام – مع أنه غير متغير – يتماشى مع مقتضيات كل العصور ، وهو يستطيع أن يتطور دون أن يتضاءل خلال القرون ، ويستطيع أن يبقى محتفظاً بكل حاله من قوة الحياة والمرونة ، فهذا هو الذى أعطى العالم أرسخ الشرائع ثباتاً .. شريعة تفوق فى كثير من تفصيلاتها الشرائع الأوروبية »[1] .

وقد قرر مؤتمر القانون الدولى المنعقد فى لاهاى سنة ١٩٤٨ أن الشريعة الإسلامية شريعة حية مرنة تصلح لملاحقة التطور مع الزمان ، وتعتبر مصدراً من مصادر القانون المقارن .

---

(١) انظر : محمد حداد : الإسلام فى وجه التحديات ص ١٠٧ نشر بيروت .

وقد كاد المسلمون – لولا المؤامرات الاستعمارية التى عاجلتهم وهم فى غفلة من أمرهم – أن ينجحوا خلال عصرهم الحديث – فى ملاحقة مواكب التطور ، ويصوغوا للحياة العصرية المتجددة ، فكرها القانونى الملائم ، فى إطار أصولهم التشريعية .

وقد ظهرت صور من هذه الملاحقات كادت تؤتى أكلها ، كما ذكرنا ومنها « الإرادة السنية أو الفرمان العالى ، الذى صدر فى تركيا ، والمرسوم العالى الذى صدر فى تونس ، والظهير الشريف فى المغرب ، كما أن الخليفة العثمانى سنة ١٨٦٩ قد أمر بإصدار مجلة الأحكام العدلية المعروفة ، إلا أنه قيدها بالمذهب الحنفى ، باعتباره المذهب السائد فى تركيا .

ومن هذه الملاحقات القانونية أيضاً مجلة الالتزامات التونسية على المذهب المالكى ، وعهد الأمان التونسى سنة ١٨٥٧ . ومثل ذلك ما وقع فى مصر سنة ١٨٧٥ حين صدر قانون للأحوال الشخصية والتركات .

لكن الأمور لم تسر على هذا النحو ، إذْ ظهرت ظروف تاريخية وحضارية ، بدأت تؤتى ثمارها الغضة ، فانتهز الاستعمار فرصتها ، وبدأ يغزونا بجيوشه التى تحمل فى يدٍ مدفعاً ، وفى اليد الأخرى قانوناً وضْعياً .. ! ! ولا حل لهذه المحنة الحضارية إلا بعودة الاجتهاد ، بصورة فردية وجماعية وبتضافر سائر الجهود ! ! .. لكنه اجتهاد فى إطار النصّ ! !



الفصل الثامن

علاقة الوحى بالعقل
(ومشكلة ترتيب الأسبقية)

فى كتابه الرائع الممتع (على مشارف القرن الخامس عشر)[1] تحدث إبراهيم بن على الوزير عن مشكلة غريبة ما كان لها أن تناقش ، إلا أن مناقشتها تعكس واقعاً ملموساً انحدر إليه فكر كثير من المسلمين ! !

فكان حديثه شجناً أىّ شجن ... ولمس – من حيث أراد أو لم يرد – مأساة غريبة انحدر إليها فكرنا الإسلامى خلال قرننا المنصرم ..

ولنتصوَّر أن مسلماً أخذ يناقش حق المسلم فى أن يشرب الماء أو يشم الهواء أو يملك حديقة يزرع فى أرجائها بعض الورود والرياحين ... ! !

ماذا يعنى أن يناقش مسلم هذه القضية ؟

إن مجرد مناقشة أمثال هذه القضايا يعنى أمرين خطيرين :

أولهما : أنَّ تصور المسلم لإسلامه قد ضاق أى ضيق ، وأنه انكفأ على ذاته يقهرها ويقهر معنى الحياة فى داخلها ومن خارجها .

ثانيهما : أن عقل المسلم فى محنة ، وأن عملية بناء ذات هذا المسلم لاصلة لها بهذا النوع من البناء الذى صنعه محمد ﷺ ، وصاغ منه جيل الصحابة والتابعين .

---

(١) نشر دار الشروق ببيروت والقاهرة .

أجل ... والذى نفسى بيده : إن إبراهيم بن على الوزير ، وهو يناقش أوضاع المسلمين (على مشارف القرن الخامس عشر) قد تعرض لمناقشةٍ من نوع المناقشة التى ذكرناها سلفاً حول حق المسلم فى أن يشرب الماء أو يشم الهواء .

ففى الصفحة الرابعة والثمانين من كتابه يقول :

« والتزمّتُ والتجهم ليسا من سمات المؤمن الذى يدعوه الإسلام إلى أن يكون هاشاً بساماً : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة » .

ويستمر المؤلف ليؤكد القضية – بقوله :

ولقد كان فى العصر النبوى مضحكون ومضحكات يسرون عن الناس لأواء الحياة ويدخلون على القلوب البهجة والمسرة والانشراح ، منهم : نعيمان بن عمر بن رفاعة الأنصارى ... ممن شهد العقبة وبدراً والمشاهد بعدهما ، قال ابن الأثير فى ترجمته من أسد الغابة : « كان كثير المزاح يضحك رسول الله ﷺ » .

وفى سنن أبى داود بسنده إلى الليث عن عمرة قالت : « كانت امرأة مكية تضحك النساء وكانت فى المدينة امرأة مثلها فقدمت المكية المدينة فتعارفتا فدخلتا على عائشة فتعجبت من اتفاقهما فقالت عائشة : « عرفت هذه ؟ » قالت : « لا ، ولكننا التقينا فتعارفنا » فضحكت عائشة وقالت : قال رسول الله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة ما توافق منها ائتلف وما تناكر اختلف » .

– وقال الرسول عن نعيمان ، وكان أولع الناس بالمزاح عنده ، وكان يكثر الضحك ، فقال الرسول : يدخل نعيمان الجنة وهو يضحك ... وقيل لسفيان الثورى : المزاح هجنة ، فقال : بل هو سنة ، وسئل النخعى ... هل كان أصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون ؟ فقال : نعم ، والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى . وجاء فى الخبر أنَّ يحيى عليه السلام لقى عيسى عليه السلام ، وعيسى مبتسم فقال يحيى : مالى أراك لاهياً كأنك آمن ، فقال عيسى : مالى أراك عابساً كأنك آيس ؟ فقال لانبرح حتى ينزل علينا الوحى ، فأوحى الله

إليهما : أحبكما إلّى الطلق البسام أحسنكما ظناً بى ...

وهكذا وخلال أربع صفحات كاملة يناقش المؤلف حق المسلم فى أن يتبسَّم ويضحك ويمزح .

ويسوق – أعانه الله – آيات من القرآن ، وأحاديث لرسول الله ، وقصصاً من التاريخ ليثبت هذا الحق الشرعىّ للمسلم ، ويؤكد – فى النهاية – أن الإسلام ليس قرين التزمت والتجهم ! ! وفى أسف يختم حديثه بقوله :

« فأين هذه السماحة من أولئك الذين باسم الجدّ لا تطيف على شفاههم ومضة ابتسام وكأن الإسلام هو العبوس والتجهم والتظاهر الدائم بذكر اللسان وهمهمة الشفاه . والقلوب والأعمال خواء من صدق وحب وإصلاح ذات بين » ! ! .

إن القضية – فى الحقيقة – ليست مجرد (مزاح) من الكتاب ، بل هى – للأسف الشديد – تعبر عن ظاهرة كلوح سيطرت على العالم الإسلامى خلال عصر التخلف ، وبرزت بشكل حاد إبان ذلك القرن المنصرم ...

فلقد نشأت طائفة فَرَضَتْ ظلها الثقيل ، وتصوراتها المغلقة وروحها المكبلة ، وعقلها المحدود – على طبيعة هذا الدين الكريم الطيب السمح ... فتحول هذا الدين – فى فكرها وسلوكها – إلى صياغة جامدة للحياة ، تنحصر بمساحة هذا الدين وإشاعاته المطلة على الكون كله إلى آفاق ضيقة لاتُجاوز المدى الذى ينتهى عند تصوراتهم ، وهو مدى ضيق كل الضيق ، لايكفى لبناء فرد .. فضلاً عن أسرة ... فضلاً عن أن يمتدَّ إلى صياغة حضارة إنسانية تسع هذه الأرض الودود وهذا الكون المأنوس ...

وكما أخضع المتصوفة الإسلام لتصوراتهم ، وحصروه فى دائرة الروح والنفس ، وعزلوه عن بقية مساحة الحياة ، وقطعوا شريط الدنيا من المجال الإسلامى ... وكأنه دين الموت والآخرة ! !

– كذلك جاء – على نقيضهم – المعتزلة – وأخلافهم من المعتزلة الجدد فى عصرنا – ليحصروا الإسلام فى منطقة « الفكر الجدلى » وليعزلوه عن مجالات الروح والنفس والعاطفة ، ويجعلوه (عقلاً محصناً) ... وكأنه نظرية من نظريات هذه الدنيا ، أو فلسفة من فلسفاتها .. وكأن الدنيا هى غايته ، وهى مساحته ... ولاشىء بعدها من موت أو آخرة ؛ لدرجة أن متطرفاً من متطرفيهم قد ذهب إلى أن أسياده المعتزلة القدامى قد قالوا بأن القرآن مخلوق بمعنى أنه من صنع الرسول محمد – وحاشا للمعتزلة القدامى أن يقولوا ذلك مهما كان خلافنا معهم ! ! .

وقد جاء آخرون ... فحصروا الإسلام فى دائرة الركن الأول من أركان الإسلام ، وهو « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ... وإذا جادلتهم فى ذلك تأوّلوا فقالوا إن الفقه الحقيقى للتوحيد سيؤدى إلى انتظام الحياة وتحقيق الرق للمسلم ، وجعله سيد الكون ... فبالشهادتين انتصر أسلافنا وفتحنا الدنيا وحققنا حضارة ...

بيد أن الأمر لو كان – كما يقولون – لما كان هناك داع لأن ينزل القرآن ليضرب فى أعماق النفس والتاريخ ، وليشرع للبشر عبادات ومعاملات تدخل إلى مجالات الاقتصاد والاجتماع والتربية .

ولما كان هناك داعٍ لأن يكون محمد رسول الله ﷺ قرآنا يتحرك ، بخلقه وعبادته وشريعته ، ويرسُم – عليه السلام – بحياته الكاملة التى تنظم دورة تاريخية استمرت ثلاثة وعشرين عاماً – إطاراً كاملاً للحياة فى ظلال الأسرة والمجتمع ، فى حالات مختلفة ومتقلبة ، لكنها – فى كل ذلك – لاتحيد عن المبادىء ، وتقدم

فى نهاية الأمر صياغةً إنسانية إسلامية كاملة للحياة ! !

وليس من هدفنا – فى هذا المقام – أن نستطرد فنقدم حصراً كاملاً لشتى التصورات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، ومن دائرة الإفراط إلى دائرة التفريط .. إلى غير ذلك من النزعات التى أسقطت على الإسلام والتى حصرته فى بعض أركانه ، وكثَّفَت ظلالاً وأهملت ظلالاً أخرى ... والتى جعلت الإسلام فى النهاية يبدو وكأنه ثوب يشدّه كل قبيل من أحد أطرافه ، أو إطار يحكم عليه كل إنسان من زاويته ... وينكر الزوايا الأخرى .

ولا أحد يريد – إلا من عصم ربك – أن يلتزم بالإطار كله ، أو أن يلبس الثوب الإسلامى كله ... ! !

❋ وإنما الذى نريد أن نصل إليه فى هذا المقام أن هذا الإسلام الذى نؤمن به ليس قانوناً جامداً يستطيع أن يفسره – بهواه وبخلفيته الثقافية – كل حاطب ليل ....

كلا ... ! !

❋ كما أن هذا الإسلام ليس نظرية جاءت لتعالج تقصيراً طارئاً فى مرحلة من التاريخ ... فهو ردّ فعل لشىء ... وقد يمكن بالتالى أن يصبح – فى أجل تاريخية مختلفة – مجموعةً من ردود الأفعال المؤقتة ... وكأنه دواء (مسكّن) لبعض الأمراض الظاهرة الأعراض ، فهو اشتراكى عند قوم ، وهو رأسمالى عند آخرين ، وهو دين عربى قومى – عند البعض ... وهو تقدمى عصرى متطور بلا حدود أو ضوابط عند كثيرين ... وهو دين الحرية التى تقترب من معناها (الليبرالى) العبثى ... وهو صوفية انعزالية قائمة ...

❋ وهذا الإسلام – أيضاً – ليس فلسفة غيبية « لاهوتية » منتظمة ، سيطر على تعريف الدين فى العصور الوسطى ، وفى دوائر المعارف العلمية الأوروبية من أن الدين مجرد علاقة تنظمها بعض الطقوس التى تصل الإنسان بالقوى الغيبية ... وتشبع فيه بعض المعانى الإشراقية ونسدّ بعض الحاجات النفسية ...

كلاّ ...

❋ وليس هذا الدين تفسيراً شخصياً متروكاً لعبث البشر ، أو لعقول البشر القاصرة المتقلبة فى كل العصور ، فهو ليس « ديناً عقلياً » يمشى وراء دروب (العقل) المليئة بالثغرات والسقطات ...

كلا ...

❋ وليس من حق أحد – فى نهاية الشوط – أن يفرض على الإسلام فكره الشخصى أو تركيزه السلوكى على جانب من الجوانب :

❋ فإذا كان هذا الإنسان يميل إلى كثرة العبادة ... فليس من حقه أن يقول إن الإسلام دين العبادة (بمعنى العبادة المحدودة) ...

❋ وإذا كان تاجراً أو رياضياً متفرغاً لتربية الجسم أو راغباً فى الحياة منفتحاً عليها بلا حدود ، فليس من حقه أن يطلى اتجاهه بطلاء إسلامى ، ويقول إن الإسلام دين المتعة واللهو واللعب وتربية الجسم ... وكأن الإسلام (دين الحياة) بهذا المعنى الضيق الهازل للحياة ...

❋ وليس من حقه أن يركّز على حديث (نعم المال الصالح فى يد العبد الصالح) ويترك حديث (اللهم أحينى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين) أو يركز على ﴿ **كلوا من الطيبات** ﴾ ويترك ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا** ﴾ و﴿ **أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا** ﴾ ..

– نعم : إن فى الإسلام عبادة ... بل إن الحياة كلها تصلح ميداناً رحباً للعبادة فى كل تقلباتها ﴿ **وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ .

– وهذا الإسلام ... فيه معاملات ، من شؤون اقتصادية ومالية وإدارية واجتماعية مختلفة ...

– وفى الإسلام منطقة للترويح عن النفس لايمكن أن تُهمل أو تُغفل لكن هذه المنطقة نفسها يمكن أن تظل فى دائرة العبادة ؛ إذا هى لم تتجاوز حجمها ولم تصبح غاية فى حدِّ ذاتها ولم تخرج عن السياج الإسلامى العام ...

فالضحك والتبسّم ومداعبة الزوجة والأولاد ، والتفكه مع الأصدقاء ، والتبسم فى وجوههم ، والبشاشة الدائمة التى تعكس صفاء المسلم فى داخله وأمله الدائم فى عفو الله ومغفرته ورحمته ... كل هذا من باب العبادة .

– ومعروفةٌ تلك القصّة التى ربط فيها الرسول ﷺ مداعبة الأطفال وتقبيلهم بالرحمة ، حين زاره أحد أصحابه ورآه يقبل الأطفال ، فقال له : إنى لا أقبل أطفالى ، فقال له الرسول ﷺ : ما أفعل وقد نزع الله الرحمة من قلبك ! !

~ ~

وهكذا فى إطار حركة الفكر القرآنى التى تربط جزئيات الحياة ببعضها وتعطيها كلها توجيهاتها ومعالم طريقها ، وفى إطار دورة الحياة الكاملة التى تعكسها سيرة الرسول بكل جزئياتها خلال ثلاثة وعشرين عاماً هى عمره النبوىّ على هذه الأرض ...

فى إطار هذين النّبعين الثرّين الكاملين ، وفى ظل الفهم الإسلامى للإنسان ككل متشابك ، وككائن معقد مكون من روح وعقل وضمير ووجدان وجسد ، وهى أساسيات لاينعزل كل منها فى منطقة محددة مقطوعة عن بقية المناطق ، بل هى جميعها كالنسيج الواحد ، إذا اختل أى ركن فيها ، اختل بقية النسيج المشتبك بها ، والذى لاينفك بطبيعته عن الثوب كله ... أو عن بقية الإطار ...

أجـل .

فى إطار هذا كله يجب أن يُفْهم الإسلام ، بعيداً عن الأوعية الملونة الضيقة التى تريد أن تفرض على هذا الدين الأبيض السَّمْح النقى ألوانها القاتمة ، ومساحتها الضيقة ، وظلالها الثقيلة ... ! !

الفصل التاسع

المسلم بين شعب الإيمان ... والكبائر

الإسلام دين الوضوح .. لأنه دين الفطرة ، والمسلم لايحتاج لغموض فلسفى ، أو رمزية منافقة باطنية يستتر بها باطنه العقدى لأن سلوكه الظاهرى منفصل عن حقيقة مايؤمن به ..

إن هذا الفصام أو الانشقاق لايعرفه المسلم ... وحتى لو أخطأ المسلم – شأن البشر – فى التطبيق ، فإنه يبقى دائماً مربوطا بفكره ونظام حياته ، يحاول الاستئناف والإقلاع بعيداً عن الخطأ الذى انحدر إليه .

– وقد وضع الإسلام المسلم بين محورين :

١ – محور شعب الإيمان التى أعلاها كلمة التوحيد ، والحياء فيها ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ومعروف أن الأذى فى الطريق قد يتسبب فى كارثة تصل إلى الموت ، وقد يتسبب فى كارثة معنوية صحية أو جمالية أو نفسية أو أخلاقية .

٢ – محور الكبائر ، وقد جاهد العلماء فى حصرها ، وكتبت فيها الكتب والدراسات ...

وإذا كانت شعبة الإيمان الأولى هى كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فإن الكبيرة الأولى هى « الشرك الأكبر » بمعنى الكفر بالله أو بالقرآن أو بالسنة الصحيحة الثابتة أو بأصول الإيمان الغيبية ...

وقد لايقوى المسلم على الالتزام بكل شعب الإيمان ، لكن المهم أن يبقى مؤمناً بها عاملاً على التمسك مااستطاع بأهدابها .

كما أن المسلم قد لايقوى على اجتناب كل الكبائر بالصورة الشرعية المرضية . لكن المهم أن يبقى من التوابين المتطهرين الذاكرين لقوله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ فلا يأس هناك ولا إيمان بعصمة ، ولا ظن بأن هناك شيئاً فوق رحمة الله .

– وآفة كثير من المسلمين أنهم يحولون بعض الفروع أو النوافل أو الهيئات إلى شعب إيمان ضرورية تصل إلى درجة فرض العين أو ركن الإسلام . وهم لا يلتمسون عذراً لأى مسلم لا يلتزم بكل ، وهم يقيمون المعارك حيث لا يجوز (العتاب) . بل الأمر دائرة السعة والرحمة . كما أن هؤلاء يرتفعون ببعض الذنوب إلى مستوى الكبائر ، وقد يستبيحون الحقد على إنسان وغيبته والإفك عليه وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ويدافعون عن الإسلام ، بينما هم – بهذا السلوك – يرتكبون كبائر فى مواجهة إنسان ارتكب بعض التقصير . وهيهات للتقصير فى بعض النوافل أن يوازى ارتكاب الكبائر القلبية والأخلاقية ... وهؤلاء قد لا يتذكرون أبداً النصوص القرآنية والنبوية التالية :

– ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ [الشعراء] .

– « وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم » .

– « من ستر مسلماً ستره الله » .

– « التمس لأخيك سبعين عذراً » .

– ونحن نسوق لهؤلاء شعب الإيمان والكبائر حتى لايتزيدوا فى دين الله ، ولايبالغوا فى تحويل المباحات إلى كبائر ، ولا النوافل إلى شعب إيمان لازمة لزوم فرض العين أو ركن الإسلام .. فمسلكهم هذا تزوير على دين الله وتضييق على شريعته وتنفير من الإسلام ! ! أما شعب الإيمان فهى :

الشعبة رقم ١ = الإيمان بالله عز وجل .

الشعبة رقم ٢ = الإيمان برسل الله عز وجل صلى الله عليهم وسلم أجمعين

الشعبة رقم ٣ = الإيمان بالملائكة .
الشعبة رقم ٤ = الإيمان بالقرآن وجميع الكتب المنزلة قبله .
الشعبة رقم ٥ = الإيمان بأن القدر خيره وشره من صنع الله عز وجل .
الشعبة رقم ٦ = الإيمان باليوم الآخر .
الشعبة رقم ٧ = الإيمان بالبعث بعد الموت .
الشعبة رقم ٨ = الإيمان بحشر الناس بعدما يبعثون من قبورهم إلى الموقف .
الشعبة رقم ٩ = الإيمان بأن دار المؤمنين ومأواهم الجنة ، ودار الكافرين ومأواهم النار .
الشعبة رقم ١٠ = الإيمان بوجوب محبة الله عز وجل .
الشعبة رقم ١١ = الإيمان بوجوب الخوف من الله عز وجل .
الشعبة رقم ١٢ = الإيمان بوجوب الرجاء من الله عز وجل .
الشعبة رقم ١٣ = الإيمان بوجوب التوكل على الله عز وجل .
الشعبة رقم ١٤ = الإيمان بوجوب محبة النبى ﷺ .
الشعبة رقم ١٥ = الإيمان بوجوب تعظيم النبى ﷺ .
الشعبة رقم ١٦ = شح المرء بدينه حتى يكون القذف فى النار أحب إليه من الكفر .
الشعبة رقم ١٧ = طلب العلم .
الشعبة رقم ١٨ = نشر العلم .
الشعبة رقم ١٩ = تعظيم القرآن الكريم بتعلمه وتعليمه ، وحفظ حدوده وأحكامه .
الشعبة رقم ٢٠ الطهارات .
الشعبة رقم ٢١ = الصلوات الخمس .
الشعبة رقم ٢٢ = الزكاة .
الشعبة رقم ٢٣ = الصيام .
الشعبة رقم ٢٤ = الاعتكاف .

الشعبة رقم ٢٥ = الحج .
الشعبة رقم ٢٦ = الجهاد .
الشعبة رقم ٢٧ = المرابطة فى سبيل الله عز وجل .
الشعبة رقم ٢٨ = الثبات للعدو وترك الفرار من الزحف .
الشعبة رقم ٢٩ = الخمس من المغنم إلى الإمام وعماله على الغانمين .
الشعبة رقم ٣٠ = العتق بوجه التقرب إلى الله عز وجل .
الشعبة رقم ٣١ = الكفارات الواجبات بالجنايات .
الشعبة رقم ٣٢ = الإيفاء بالعقود .
الشعبة رقم ٣٣ = تعديد نعم الله عز وجل ومايجب من شكرها .
الشعبة رقم ٣٤ = حفظ اللسان عما لايحتاج إليه .
الشعبة رقم ٣٥ = الأمانات وما يجب فيها من أدائها إلى أهلها .
الشعبة رقم ٣٦ = تحريم قتل النفوس والجنايات عليها .
الشعبة رقم ٣٧ = تحريم الفروج ومايجب فيها من التعفف .
الشعبة رقم ٣٨ = قبض اليد عن الأموال .
الشعبة رقم ٣٩ = وجوب التورع فى المطاعم والمشارب والاجتناب عما لايحل منها .
الشعبة رقم ٤٠ = تحريم الملابس والزىّ والأوانى ومايكره منها .
الشعبة رقم ٤١ = تحريم الملاعب والملاهى المخالفة للشريعة .
الشعبة رقم ٤٢ = الاقتصاد فى النفقة وتحريم أكل المال بالباطل .
الشعبة رقم ٤٣ = ترك الغل والحسد ونحوهما .
الشعبة رقم ٤٤ = تحريم أعراض الناس ومايجب من ترك الوقيعة فيها .
الشعبة رقم ٤٥ = إخلاص العمل لله عز وجل ، وترك الرياء .
الشعبة رقم ٤٦ = السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة .
الشعبة رقم ٤٧ = معالجة كل ذنب بالتوب .
الشعبة رقم ٤٨ = القرابين .

الشعبة رقم ٤٩ = طاعة أولى الأمر .
الشعبة رقم ٥٠ = التمسك بما عليه الجماعة .
الشعبة رقم ٥١ = الحكم بين الناس بالعدل .
الشعبة رقم ٥٢ = الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .
الشعبة رقم ٥٣ = التعاون على البر والتقوى .
الشعبة رقم ٥٤ = الحياء .
الشعبة رقم ٥٥ = بر الوالدين .
الشعبة رقم ٥٦ = صلة الرحم .
الشعبة رقم ٥٧ = حسن الخلق .
الشعبة رقم ٥٨ = الإحسان إلى المماليك .
الشعبة رقم ٥٩ = حق السادة على المماليك .
الشعبة رقم ٦٠ = حقوق الأولاد والأهل .
الشعبة رقم ٦١ = مقاربة أهل الدين ومودتهم وإفشاء السلام بينهم والمصافحة لهم .
الشعبة رقم ٦٢ = رد السلام .
الشعبة رقم ٦٣ = عيادة المريض .
الشعبة رقم ٦٤ = الصلاة على من مات من أهل القبلة .
الشعبة رقم ٦٥ = تشميت العاطس .
الشعبة رقم ٦٦ = مباعدة الكفار والمفسدين ، والغلظ عليهم .
الشعبة رقم ٦٧ = إكرام الجار .
الشعبة رقم ٦٨ = إكرام الضيف .
الشعبة رقم ٦٩ = الستر على أصحاب القروف .
الشعبة رقم ٧٠ = الستر على المصائب وعما تنزع النفس إليه لذة وشهوة .
الشعبة رقم ٧١ = الزهد وقصر الأمل .
الشعبة رقم ٧٢ = الغيرة وترك المذاء .

الشعبة رقم ٧٣ = الإعراض عن اللغو .
الشعبة رقم ٧٤ = الجود والسخاء .
الشعبة رقم ٧٥ = رحم الصغير وتوقير الكبير .
الشعبة رقم ٧٦ = إصلاح ذات البين .
الشعبة رقم ٧٧ = أن يحب الرجل لأخيه المسلم مايحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه .

– وهذه هى « شعب الإيمان » كما أوردها البيهقى واختصرها عنه أبو المعالى عمر القزوينى المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة .

وليست هذه الشعب حصراً كاملاً بحيث تكون جامعة مانعة موقفة للاجتهاد ... ولكنها مما يقع عليه الإجماع وتستريح إليه نفس كل مسلم ، لأنها من بديهات الإسلام ومسلماته ، وهى مما توجبه الفطرة أيضاً .

وفى مقابل هذه الشعب تقف « الكبائر » ... والمسلم يتحرك بين هذين المحورين – كما ذكرنا – ساعياً لتحقيق شعب الإيمان ملتزماً بما لامناص من الالتزام به ، مقترباً من بقية الشعب التى يتفاوت الناس فى درجاتها .. فمنهم سابق بالخيرات ومنهم مقتصد .

***

وعندما ننظر فى الكبائر نجد أن الكبر والفخر والخيلاء هى الشعبة رقم ١٧ – حسب ترتيب البيهقى – ونجد الظلم هو الشعبة رقم ٢٦ ، والبغى هو الشعبة رقم ٥٠ ، والاستطالة على الضعيف والمملوك هو الشعبة رقم ٥٤ وهى (أذية عباد الله) كأنها تكرار ...

ومن الغريب أن بعض المسلمين يمتلئون بالظلم والعنصرية واستغلال ظروف إخوانهم المسلمين الفقراء ، ويحتقرونهم فى بلادهم وهم يعملون عندهم ، وقد يفضلون عليهم فى الأجور ، وفى حسن المعاملة النصارى والوثنيين والعلمانيين ،

ومع ذلك فإن بعض المسلمين يسكتون على هذا الجور الفاضح ، ويدخلون فى معارك من أجل نوافل وهيئات ، ويظنون أنهم الدعاة المخلصون للإسلام ، وأن غيرهم لايؤخذ الفقه منهم ! !

إن عقولهم وقلوبهم تميل إلى تطويع الإسلام لمصالحهم وأهوائهم وإنهم ليجدون من الأساليب المنفعية مايبررون به ظلمهم لإخوانهم ، وجنوحهم نحو النصارى والوثنيين ..

فإلى هؤلاء يجب أن يتجه الفكر الإسلامى لتبصيرهم بترتيب حقائق الإسلام ، من شعب إيمان فى جانب ، ومن كبائر فى الجانب الآخر ..

وكما ذكرناهم بشعب الإيمان وترتيبها ، نذكرهم – فى الجانب الآخر – بالكبائر وترتيبها كما أوردها الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨هـ) وهى :

الكبيرة رقم ١ = الشرك بالله .
الكبيرة رقم ٢ = قتل النفس .
الكبيرة رقم ٣ = السحر .
الكبيرة رقم ٤ = ترك الصلاة .
الكبيرة رقم ٥ = منع الزكاة .
الكبيرة رقم ٦ = إفطار يوم من رمضان بغير عذر .
الكبيرة رقم ٧ = ترك الحج مع القدرة عليه .
الكبيرة رقم ٨ = عقوق الوالدين .
الكبيرة رقم ٩ = هجر الأقارب .
الكبيرة رقم ١٠ = الزنا .
الكبيرة رقم ١١ = اللواط .
الكبيرة رقم ١٢ = الربا .
الكبيرة رقم ١٣ = أكل مال اليتيم ظلماً .

الكبيرة رقم ١٤ = الكذب على الله ورسوله .
الكبيرة رقم ١٥ = الفرار من الزحف .
الكبيرة رقم ١٦ = غش الإمام الرعية وظلمه لهم .
الكبيرة رقم ١٧ = الكبر والفخر والخيلاء والعجب والتيه .
الكبيرة رقم ١٨ = شهادة الزور .
الكبيرة رقم ١٩ = شرب الخمر .
الكبيرة رقم ٢٠ = القمار .
الكبيرة رقم ٢١ = قذف المحصنات .
الكبيرة رقم ٢٢ = الغلول من الغنيمة .
الكبيرة رقم ٢٣ = السرقة .
الكبيرة رقم ٢٤ = قطع الطريق .
الكبيرة رقم ٢٥ = اليمين الغموس .
الكبيرة رقم ٢٦ = الظلم .
الكبيرة رقم ٢٧ = المكاس .
الكبيرة رقم ٢٨ = أكل الحرام وتناوله على أى وجه كان .
الكبيرة رقم ٢٩ = أن يقتل الإنسان نفسه .
الكبيرة رقم ٣٠ = الكذب .
الكبيرة رقم ٣١ = القاضى السوء (الهوى فى القضاء) .
الكبيرة رقم ٣٢ = الرشوة على الحكم .
الكبيرة رقم ٣٣ = تشبه المرأة بالرجال وتشبه الرجال بالنساء .
الكبيرة رقم ٣٤ = الديوث .
الكبيرة رقم ٣٥ = المحلل والمحلل له .
الكبيرة رقم ٣٦ = عدم التنزه من البول .
الكبيرة رقم ٣٧ = الرياء .
الكبيرة رقم ٣٨ = التعلم للدنيا وكتمان العلم .

الكبيرة رقم ٣٩ = الخيانة .

الكبيرة رقم ٤٠ = (المنّ) بالعطاء أو الجميل .

الكبيرة رقم ٤١ = التكذيب بالقدر .

الكبيرة رقم ٤٢ = التسمع على الناس ومايسّرون .

الكبيرة رقم ٤٣ = النمام .

الكبيرة رقم ٤٤ = اللعان .

الكبيرة رقم ٤٥ = الغدر وعدم الوفاء بالعهد .

الكبيرة رقم ٤٦ = تصديق الكاهن والمنجم .

الكبيرة رقم ٤٧ = نشوز المرأة على زوجها .

الكبيرة رقم ٤٨ = التصوير (النحت) .

الكبيرة رقم ٤٩ = اللطم والنياحة وغيرهما .

الكبيرة رقم ٥٠ = البغي .

الكبيرة رقم ٥١ = الاستطالة على الضعيف والمملوك والجارية والزوجة والدابة .

الكبيرة رقم ٥٢ = أذى الجار .

الكبيرة رقم ٥٣ = أذى المسلمين وشتمهم .

الكبيرة رقم ٥٤ = أذية عباد الله والتطول عليهم .

الكبيرة رقم ٥٥ = إسبال الإزار أو الثوب واللباس والسرابيل (الكبر والبطر والتعالى) .

الكبيرة رقم ٥٦ = لبس الحرير والذهب للرجال .

الكبيرة رقم ٥٧ = إباق العبد .

الكبيرة رقم ٥٨ = الذبح لغير الله عز وجل .

الكبيرة رقم ٥٩ = من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم .

الكبيرة رقم ٦٠ = الجدل والمراء واللدد .

الكبيرة رقم ٦١ = منع فضل الماء .

الكبيرة رقم ٦٢ = نقص الكيل والزرع وما أشبه ذلك .

الكبيرة رقم ٦٣ = الأمن من مكر الله .
الكبيرة رقم ٦٤ = أذية أولياء الله .
الكبيرة رقم ٦٥ = تارك الجماعة ليصلى وحده من غير عذر .
الكبيرة رقم ٦٦ = الإصرار على ترك الجمعة والجماعة من غير عذر .
الكبيرة رقم ٦٧ = الإضرار بالوصية .
الكبيرة رقم ٦٨ = المكر والخديعة .
الكبيرة رقم ٦٩ = من جسّ على المسلمين ودلَّ على عوراتهم .
الكبيرة رقم ٧٠ = سبّ أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وفى إطار شعب الإيمان (معروفاً) والكبائر (منكرا) يجب أن يتحرك المسلم واعياً بالسلب والإيجاب ، مقترباً من الكمال ، غير مبدد لطاقته ووقته فى سبيل القتال والصراع من أجل فروع وجزئيات .. وحسبه أن أخوة الإسلام تجمعه مع إخوانه المسلمين على مبادىء واضحة .. وحسبه أن ينتمى لدين « الوسط » الذى يوازن بين الرحمة والعقوبة ، والإفراط والتفريط ، والعمل والأمل فى وجه الله ... فلماذا يُضيق المسلم واسعا ؟ ولماذا يريد تحويل الإسلام عن طبيعته السمحة الكريمة ؟ ولماذا لاتتفتح – فى إطار الثوابت والكليات كل العقول والقلوب وزهور الإبداع والعطاء والحبّ ؟ ! !

الفصل العاشر

الأمة الإسلامية والمنطلقات الضرورية

من بين القوى الموجودة فى العالم تقف الأمة الإسلامية – وحدها – ساكنة ، مترددة ، مرتبكة الخطوات ، تنطلق يميناً تارة ثم تعود ، لتنطلق يساراً تارة أخرى ، فكأنها فى موقفها لاتتزحزح قيد أنملة ...

أو قل إنها واقفة على مفترق طرق يتجاذبها بعضهم إلى اليمين ، وبعضهم إلى اليسار ، وهى بين هؤلاء وأولئك ، لاتستطيع أن تتحرك من مكانها المكبلة فيه ...

إن الأمة الإسلامية لو تركت لشأنها بعيداً عن هؤلاء الذين يتجاذبونها لتحركت فى الاتجاه المستقيم الواضح أمامها ، لكنها بتأثير هؤلاء المكبلين لها ، المقيدين لحركتها ، الموجهين لمسيرتها وجهة لم تألفها أقدامها ، ولم تحس بالتجاوب معها روحها ، ولم يقتنع بها عقلها – عاجزة عن الانطلاق فى الطريق الصحيح الذى تألفه وتحسّه وتعقله ! !

– وما رأيك فى أمة يسعى بعض أبنائها إلى تصفية العقيدة مما لحق بها من الشوائب بينما يسعى بعض أبنائها تحت لافتات مختلفة – لإبقاء الخرافات التى لحقت بالعقيدة كما هى ؟ ! !

– وما رأيك فى أمة يسعى بعض أبنائها (وهم الغالبية العظمى) لتطبيق شريعة الإسلام فى حياتهم ، بينما تقف قلة مفردة فكرياً حائلاً منيعاً دون تطبيق هذه الشريعة ؟

– ومارأيك فى أمة تصاغ حياتها – فى بلدانها المختلفة – وفق أنماط متناقضة ، فهناك صياغة علمانية ، وهناك صياغة (اشتراكية لادينية) وهناك صياغة (لا إسلامية) تدهن جدرانها ببعض الطلاء الخارجى الإسلامى ، ثم ترفع عقيرتها بأنها تطبق الإسلام ، مع أنها لاتطبق من الإسلام إلا هذه الألوان الشكلية :

وهناك صياغة (معادية للإسلام) وتسمى نفسها إسلامية ، .. بل وتسمح لكل أعداء الإسلام بالحركة والعمل أكثر مما تسمح للعاملين للإسلام (! !) ؟ ! ! ومع ذلك فهى – شئنا أم أبينا – إسلامية .

– وما رأيك فى أمة تكاد لاتنتمى حياتها لأى لون ، ويكاد يصعب على المحلل والمؤرخ أن يجد لها (إطاراً محدداً) فهى تأخذ من الإسلام بطرف ، ومن الإشتراكية بطرف ، ومن العلمانية بطرف ، ومن الوثنية بطرف ومن كل شيء بطرف ، ومن لاشيء بطرف ؟ ! !

إن تجربة التاريخ وقوانين الحضارة توجبان على كل أمة أن تحدد لها مساراً منسجماً مع جذورها متناغماً مع أهدافها فى عصرها ولم يعرف أن أمة قد سارت – دون معالم – ثم وصلت إلى شيء .

وكيف تصل وهى لاتعرف الطريق ؟ وكيف تصل وهى لاتعرف إلى أى شيء تريد أن تصل ؟

وكيف تصل وهى تقدم رجلاً هنا وتؤخر رجلاً هنا ؟

وكيف تصل وهى مرتبكة الخطوات زائغة الأبصار ، حائرة الفكر ، تفتقد المنطلقات ، وينقصها معرفة « الأساسيات الضرورية لمرحلة الانطلاق » « والمعالم الثابتة فى طريق الانطلاق » و « الأهداف المحددة التى يجب أن تتجه إليها كل القوافل » مهما تشعبت الاجتهادات ، وتباينت – فى الوسائل والفرعيات – النظرات ؟ ! ! .

ومع أنه ليس مقصوداً هنا أن نبسط القول فى (المنطلقات الضرورية والمعالم الثابتة والأهداف الضرورية) فحسبنا أن نوجز القول فى (المنطلقات الضرورية) للانطلاق .

وفى رأينا المستقى من التاريخ أن هناك تشابكاً بين (المنطلقات والمعالم والأهداف) فعلى ضوء الأهداف تتجدد المنطلقات ، وفى ظلال المنطلقات تتحدد المعالم الأساسية ، فقوانين الحضارة لاتسمح بوجود تناقض بين هذه المنظومة الثلاثية ، بل إنها منسجمة متناغمة متشابكة متكاملة ...

وبما أن (الأهداف الإسلامية) لهذه الحياة واضحة ومعروفة ، ويمكن تلخيصها فى ثلاثة أهداف أساسية :

أولاً : تحقيق شهادة الأمة الإسلامية على الناس بإقرار المعروف وإنكار المنكر ونشر العدل والإيمان بالله .

ثانياً : تحقيق خلافة الله للإنسان فى هذا الكون .

أقول : بما أن هذه الأهداف واضحة ومحددة ، فإنه يمكن على ضوئها تحديد (المنطلقات) الضرورية للأمة الإسلامية .

وهذه المنطلقات تتجه فى طريقين متكاملين :

* طريق داخلى فكرى نظرى ! !

* وطريق عملى تطبيقى ! ! .

فأما الطريق (الأول) فإنه يوجب القيام بخطوات متعددة :

أولاها : الإيمان بأن التغيير يبدأ من الداخل ، ولايستورد من الخارج ، وأن إصلاح الداخل هو الطريق لإصلاح الخارج ، وأما إصلاح الخارج فقد لايؤدى إلى إصلاح الداخل ﴿ **إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [الرعد] .

ثانيتها : الإيمان بأنه لاطريق لتحضيرنا ولا لتحقيق تقدمنا إلا بالإسلام ، فالتقليد ليس طريق الإبداع الحضارى ، وإنما الأصالة والمعاناة هما الطريق للتحضر ، وكما أن الحرية لاتمنح ، فكذلك الحضارة لاتوهب ، ولاتشترى ، حتى وإن استوردت كل منتوجات الحضارة ، فالحضارة شىء ومنتوجاتها شىء آخر .

وثالثتها : ضرورة تخليص الإسلام من المفاهيم الحضارية المجلوبة الفارسية والهيلينية فإن تلك المفاهيم (كما يقول الأستاذ حماد العبادى فى كتابه عن الدعوة الإسلامية) خرجت بالإسلام عن روحه الإصلاحية العملية وأحالتها إلى بحوث نظرية مجردة ، فعوض أن تبحث تلك الأصول من حيث القيم والمثل العليا المصرح بها تصريحاً فى القرآن والسنة لايحتمل التأويل من مثل ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ ، ﴿ **لست عليهم بمسيطر** ﴾ ، ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ ﴿ **لاضرر ولاضرار** ﴾ ، ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ ، ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

وبدلاً من أن تبحث تلك الأصول من خلال سيرة النبى ﷺ وسنته اتجه البحث اتجاهاً عقيماً واصطبغ بصبغة الجدل والنزاع فى كل شىء فهو إسلام فى الظاهر ولكن مضمونه كان تصوفاً هندياً وفلسفة يونانية وزندقة فارسية وبذلك تقدمت المباحث النظرية المجردة وتعفنت الحياة الاجتماعية والسياسية لأن الإسلام لم يعد ذلك الإسلام الواقعى التجريبى وإنما أصبح فى معظمه (ميتافيزيقا) لاطائل من ورائها و لم تبق من صفته العملية إلا عبادة خالية من الروح ، وأصيب الإسلام بداء المظاهر فكان له رجال دين ، وكانت له رتب دينية على نحو الديانات الأخرى التى هاجمها هو نفسه فى هذه النواحى وانتهى الأمر آخر المطاف إلى أن أصبح منحصراً فى أعمال تعبدية ذات نزعة فردية وهكذا سيطرت عقلية الديانات السابقة المتدهورة والمفاهيم الوهمية الموروثة فاصطبغت بها الأصول الإسلامية وبات من الواجب الأكيد الرجوع إلى الإسلام فى أصوله الأولى وفى تطبيق تلك الأصول وفق ما جاء فى سنة النبى ﷺ وسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده .

وأما الطريق التطبيقى فيوجب إزالة التناقض الكبير الذى يحكم سائر مجالات الحياة الإسلامية من مصالح ودوائر ومؤسسات وهيئات وبين العلماء والزعماء ، والشباب والشيوخ ، والعلماء والشعراء ، والأدباء ... وبين الواقع والإعلام ، وبين السياسة الداخلية والخارجية ... فهذا التناقض غطى على مساحة العالم الإسلامى كله وطغى على سائر المرافق والأجهزة الرسمية والشعبية حتى صار « أمراً واقعاً » لامفر منه ، وأصبح طبيعة وذوقاً وعادة لاانفكاك عنها .

وكما يقول الأستاذ (محمد الحسنى الهندى) رحمه الله ، فإن هذا التناقض سدَّ الباب أمام سائر الإصلاحات والتغييرات والتحويلات الفكرية والاجتماعية والسياسية ، أو قل إذا شئت – انساق معها ورافقها على خط « التعايش السلمى » فلا الترتيل عند بدء برامج الإذاعة والشاشة الصغيرة يمنع من رقصات العرى والمجنون ، ولا هذه البرامج الفاسدة الضالة المضلة تنهى عن ترتيل آيات الله افتتاحاً للأغنية والرقصات والآهات والدموع ، وخلع إزار الحشمة والوقار بين الآباء والأبناء والأمهات والبنات ، بل إنهما يتعايشان بسلام وأمان ، وبينهما برزخ لايبغيان .

لقد صار فى العالم الإسلامى بعامة ، وفى الجزائر العربية والخليج بخاصة تياران : تيار إسلامى ، وتيار علمانى ... الأول يتصل بالمنابر والمقالات والمؤلفات والإعلانات والتصريحات والمؤتمرات والندوات ، والصحف والمجلات ، والثانى (العلمانى) يتصل بأعماق الحياة ومجرى الحياة ويمس صميم المجتمع ، وعمق الحضارة وذوق العائلات والأبناء وعواطفهم وهواياتهم ورغباتهم ، ومطامح البنات ورغباتهن ... وإن الذى يرى الشاشة الصغيرة ، ويتصفح الجرائد والمجلات الخليعة ، وينظر إلى الأفلام الخاصة التى تهرب إلى هذه البلاد ، وتشاهدها العائلات أو مجموعة الأصدقاء والإخوان والأقارب فى داخل البيوت (ويقال إنها أفلام فى غاية الانحطاط) والذى يرى مستحضرات التجميل وأدوات التأثيث والأناقة ، ومعارض الأزياء ، أو يدخل فى « الفيلات » الأنيقة التى تبدو كباقة

الزهور ، ويرى مظاهر اللامبالاة وقلة الاهتمام بالحلال والحرام ، والجرى وراء الموضات والتقليعات من غير روية وتعقل . الذى يرى ذلك كله يظن – كما قال المرحوم الحسنى – أنه فى مدينة من المدن الأمريكية لأنه يرى أصحابه يعيشون حياة مترفة ، ويرى أن الجانب العلمانى (الحضارى) قد انتصر على الجانب الإسلامى الضعيف والمحاصر والمراقب والفقير ، والذى لا يكاد يظهر إلا فى مجال الدعاية والإعلان ! !

إنه لتناقض قاتل ، ما لم يقاوم مقاومة رسمية وشعبية متعاونة وما لم يواجه بتخطيط مضاد يتعاون عليه الأمراء والعلماء . وسائر المخلصين .

وبغير هذا لايمكن الانطلاق .

وإن ذلك مانأمل أن يلتفت إليه المسؤولون عن هذه الأمة فى سائر المواقع والميادين ! ! « وإن الله لمع المحسنين » .

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

رقم الإيداع
٩١/٨١٨٨
I. S. B. N
977-255-040-7

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢